مديرية الثقافة لولاية الوادي

# ونرنات

## في الاحساس والتفاؤل والتغيير

الطاهر الأدغم

مجموعة مقالات

مديرية الثّقافة لولاية الوادي

# دَنْـدَنَـات

## فـي الإحساس والتّفاؤل والتّغيير

الطّاهر الأدغم

مجموعة مقالات

حي الشط قرب الحي الجامعي - الوادي

هاتف 032 24 07 18
032 24 71 71
فاكس 032 24 93 11

البريد الإلكتروني:edition@mezouar.net

الموقع الالكتروني:www.mezouar.net

**Mezouar**

**Printing, Publishing and Distributing**

Chott city near to the university campus
El-oued

Tél : 032 24 71 71
: 032 24 07 18
Fax: 032 24 93 11

E-mail: edition@mezouar.net

site web: www.mezouar.net

جميع حقوق الطبع محفوظة

All Rights Reserved

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

تصفيف الكتاب : الأشهب هاجر

مصمم الغلاف : قروي عبد الكريم

الطباعة: مطبعة مزوار

الطبعة الاولى

2011

الايداع القانوني: 2011-1354

ردمـــــــك : 978-9947-942-67-3

# إهـــداء

**إلى الذّين تحدّوا الواقع**

**فرفعوا شموع التّفاؤل**

**وآمنوا بالغد المشرق للجزائر**

# مقدّمة

كلمات بريئة.. عنوان ثابت لعمود صحفيّ أبصر النّور مع أوّل عدد من أسبوعيّة الجديد بولاية الوادي.. استمرّ العمود على نمط واحد تقريبا حيث اجتهدتُ دائما أن يكون حادي (كلماتي البريئة) هو النّقد الهادئ دون تجريح أو تشويه أو استهداف لأشخاص وهيئات.

انطلقت تلك الكلمات بريئة وتواصلت كذلك، كما أتصوّر على الأقلّ، لأنّها حافظت على التّفاؤل وابتعدت عن لغة التّهويل والتّخويف والتّخوين والتّبشير بالويل والثّبور وعظائم الأمور.. تلك اللّغة البائسة التّي وقع في براثنها عدد معتبر من كتّابنا الكبار والصّغار على حدّ سواء.

كلماتٌ بريئة لأنّها محاولة للتّعبير عن حبّي لهذا الوطن الكبير، الجزائر، ومنه هذه الرّبوع الطّيبة، وادي سوف وما حولها.. حبّ ربّما تحوّل إلى زفرات وحسرات في بعض الأحيان، لكنّه جاء في الأغلب على شاكلة الأماني والطّموحات والخيال الذّي يسرح ويمرح في آفاق المستقبل ويرسم للبلاد والعباد صورة زاهية الألوان تحاكي كثبان رمال الوادي الذّهبية في جمالها ونقائها وصفائها.

كلماتٌ بريئة لأنّني حاولت التّركيز في كثير منها على الإحساس بالمشكلة كأساس للانطلاق، فالذّي لا يدرك خطورة وضعه، أو تردّي ثقافته أو تخلّف مستواه المعيشيّ والاجتماعيّ، لن يبادر إلى التّغيير وسيظلّ في مكانه حتّى يدركه هادم اللذّات ومفرّق الجماعات.

(كلماتي البريئة) تراوحت بين الاجتماعيّ والثّقافيّ والتّنمويّ وغيره، وقد حاولت الابتعاد عن السّياسة بمعناها المباشر قدر الإمكان.. لكنّ دون ذلك خرط القتاد، بالنّسبة لي على الأقلّ.. لأنّ السّياسة قد توغلت في أعماق حياتنا اليوميّة بدءا من رغيف الخبز الذّي نقتات به وقلم الرّصاص الذّي نشتريه لأولادنا وليس انتهاءً بالحملات والمواسم الانتخابيّة.. فهي، أي السّياسة، إن لم تكن كلّ شيء فهي في كلّ شيء على حدّ قول أحد الفلاسفة.

أملي أن يجد القارئ متعة في قراءة هذه المختارات من (كلماتي البريئة) المنشورة في سنوات 2008 و 2009 و 2010، وأن يلتمس لي العذر فيما اختلفت فيه الأفهام وتعدّدت حوله الأحكام..

لكنّ أملي الأكبر أن يُدَنْدِن القرّاءُ الكرامُ معي حول أهميّة الإحساس بالمشاكل التّي حولنا وبيننا وفينا.. ومن ثمّ ضرورة التّغيير نحو الأفضل.. وقبل ذلك وبعده ذلك التّفاؤل الذّي يتحدّى العقبات ويصرخ بشجاعة في وجه التّحديات.

**الطّاهر الأدغم**

هُبّة (ولاية الوادي)، الجنوب الجزائريّ
الثّلاثاء 6 صفر 1432 هـ الموافق لـ 11 جانفي 2011 م

# في المطالبة
# والإدارة
# وسيادة القانون

# مأساة حقيقيّة

ذهبتُ إلى البلديّة لأحوّل إقامتي إلى بلديّة أخرى في الولاية نفسها، وكنتُ أعتقد أنّ الأمر سهل حيث أمْثُل (بكامل قواي العقليّة والبدنيّة) أمام الموظّف (كانت موظّفة) وأطلب الشّطب من القائمة الانتخابيّة وأحصل على شهادة تحويل الإقامة... فكانت المفاجأة أن طلبتْ منّي الموظّفة ملفّا كاملا لي ولزوجتي، فجادلتُها بالتّي أحسن قائلا: يمكن أن أهضم بسهولة إحضار ملّف عند التّسجيل عندكم، وهذا ما فعلتُه عندما سجّلت هنا، لكن كيف أحتاج إلى ملفّ جديد وأنا أغادر..؟

رضختُ للأمر بعد مناقشة بسيطة، فلم أتعوّد إطالة الحديث مع النّساء لطبيعتي القرويّة، وأحضرتُ الملفّ وتسلّمتُ وثيقة الشّطب وشهادة التّحويل، واستأذنتُ الموظّفةَ في إزعاجها بسؤال حول فحوى وحكمة هذا الملف، لأنّي لم أجد هذا الإجراء في بلديّات أخرى، فقالت إنّ رئيس القسم (أصدر مرسوما) بهذا الأمر بعد حدوث مشاكل مع المواطنين، حيث يأتي شخص ويقول إنّه لم يشطب اسمه من القائمة الانتخابيّة، ولم يبدّل إقامته من الأساس، وتأتي زوجةٌ محترمةٌ وتعلن أنّها لم تطلب من زوجها المحترم شطب اسمها وهكذا.. فقلت ومتى يحدث ذلك..؟ قالت عند اقتراب المواعيد الانتخابيّة، وعندما يرغب المواطن في استخراج شهادة أو بطاقة إقامة في بلديّتنا بعد أن صار مقيما في بلديّة أخرى.

وهكذا ضاع مني يوم كامل لأجل ملفّ تسبّب في فرضه انعدام الثّقة والشّفافيّة بين الإدارة والمواطن، وهكذا تضيع كثير من الأوقات هدرا... فلو افترضنا أنّ عشرة ملايين جزائريّ فقط هم الذّين يراجعون الإدارات والبلديّات لأجل الأوراق والوثائق المتنوّعة الأشكال والمسميّات، وأنّ كلّ واحد من هؤلاء ينفق من وقته سنويّا خمس ساعات فقط على الطّوابير والمواصلات؛ فإنّ النّتائج ستكون مخيفة جدا، فمجموع الأوقات الضّائعة خلال سنة واحدة يزيد عن خمسة آلاف وسبعمائة سنة (5700)..!!!

إنّها مأساة حقيقيّة، وبكلّ ما لهذه الكلمة من معنى..!

# شموع التّفاؤل

سارع الوالي الجديد إلى تثبيت صندوق للشّكاوى على باب ديوانه واحتفظ بالمفتاح لنفسه، فهو الذّي يتصفّح رسائل المواطنين ويطّلع عليها دون وسيط، ودون المرور على مقصّ رقيب قد لا تروقه الحقيقة الكاملة..

ومرّة كان سيادة الوالي يزور أحد الأحياء المتضرّرة بسبب السّيول، وفي رفقته رئيس البلدية حسب الأصول البروتوكوليّة، ولمّا همّ الوالي بالاقتراب من الأماكن التّي تغمرها المياه صاح رئيس البلديّة: سيّدي الوالي سيدخل الماء إلى حذائك.. فسارع الوالي بالردّ: فكّر في أمرك أنت، أما أنا فـ (البُوط) في السّيّارة وسأرتديه حالما أصل.

وتواترت الرّوايات أنّ السّيّد الوالي شُوهد مرّة وهو يساعد العمّال على إزاحة أكوام الثّلج عن أحد طرقات المدينة، حيث خرج في جولة لمعاينة أوضاع النّاس بعد هطول كميّات كبيرة من الثّلوج.

ما سبق حدّثني به أكثر من مواطن في عاصمة إحدى الولايات الشّمالية.. لكنّ الجميع كانوا يختمون حديثهم بتلك اللاّزمة البائسة المتشائمة: لن يتركوه على حاله ما دام نظيفا ومخلصا في عمله..! وهكذا يتكرّر هذا الأمر في كثير من مجالسنا وأحاديثنا الخاصّة والعامّة، وحتّى على صفحات جرائدنا وبأقلام بعض كتّابنا المرموقين، حيث يعمل الجميع على تصوير أوضاعنا على أنّها سيّئة للغاية وتندفع نحو الأسوأ دائما وأبدا.

إنّ حجم التّحديات كبير وعناصر الفساد قد انتشرت في مفاصل كثيرة من جسم بلادنا، لكنّ الصّورة المقابلة تحكي مشهدا آخر تظهر فيه كثير من الكفاءات والقيادات والكوادر النّظيفة المخلصة التّي تحمل على كاهلها همّ الوطن، وتضع في حسابها آلام وآمال المواطن الجزائري البسيط قبل أيّ اعتبار آخر..

وأقلّ ما نساعد به هؤلاء هو أن نشعل شموع التّفاؤل وننشر أريج الأمل.

# ما ضاع حقّ وراءه مُطَالِب

سمع أصواتا مريبة ومحاولة لفتح باب المحلّ بالقوّة، ولمّا أيقظ جيرانه ودبّت الحركة في سكون الليل لاذ اللّصوص بالفرار، وفي الصّباح كان يقصّ علينا تفاصيل الواقعة، ويكرّرها كلّما حضر أحد زبائنه، فبادرتُ بالسّؤال: هل أودعتَ شكوى رسميّة لدى مصالح الشرطة..؟

قال: وما فائدة ذلك..؟ سوف أضاعف الإجراءات الأمنيّة وأوظّف حارسا ينام داخل المحل.. ومع ذلك أقنعته بالاتّصال بالشّرطة، وبعد أيّام اكتشفتُ أنّه لم يفعل ذلك.

الحادثة لم تكن الأولى في الحيّ، ومع ذلك ظلّت يقظة رجال الأمن متواضعة، والسّبب في تقديري هو تقصير المعنيين بالأمر من السّكان وأصحاب المحلاّت التّجارية، فلو أنّهم "أزعجوا" مركز الشّرطة بسيل من الشّكاوى الواحدة تلو الأخرى، ولو أنّهم تقدّموا بأنفسهم إلى المركز ليتحدّثوا إلى المسؤولين عن الخلل الأمنيّ في حيّهم واستمروا في ذلك دون ملل؛ لَتَغَيّر الأمر ولَسَارعت الشّرطة إلى ضبط الأمر، استجابة لنداء الواجب، أو تخلّصا من "السكّان المزعجين" على أقلّ تقدير.

أمثلة كثيرة في أحيائنا وقرانا ومدننا عن تقصير الجهات المسؤولة، لكنّ التّقصير الأكبر يكمن في المواطنين..! فكم نسبة الذّين يحتجّون عند البلدية أو الشّركة المسؤولة أو رجال الشّرطة والدّرك..؟ وكم نسبة الذّين يتابعون احتجاجاتهم ويسألون عن نتائج الطّلبات التّي تقدّموا بها..؟ وكم نسبة الذّين يبادرون إلى رفع الأمر إلى الجهات الأعلى أو الكتابة إلى وسائل الإعلام..؟

لن يضيع حقٌ وراءه مُطالِب..

وعلينا فقط أن نتعلّم وسائل وتقنيات المطالبة والمتابعة الإيجابية، ونضع نصب أعيننا أنّ كثيرا من المسؤولين الكبار في بلادنا ينتظرون بفارغ الصّبر رسالة أو شكوى أو مقالا في صحيفة، ليكون دليلا بين أيديهم وحجّة لهم للتّحرك ضدّ قلاع الرّداءة والفساد.

# أضعف الإيمان

حدثّني قريبٌ عبر الهاتف وسرد عليّ قصّة كنت أعرف طرفا منها، وختم حديثه بأنّ الشّخص الذّي كان يساعده في حلّ معضلته قد طلب مبلغ كذا وكذا على شكل رشوة غير صريحة.

قلت لمن كان معي، وكان رجلا جادّا ونظيف اليد كما أحسبه: المسكين طلبوا منه رشوة..!

قال: كم..؟ قلت: كذا.. قال: والله إنّه مبلغ بسيط جدا مقارنة بما يطلب آخرون..!

أعترف، والحمد لله، أنّني لا أمتلك أيّ خبرة في تقييم مبالغ الرّشاوى وما شابهها ولا أعرف شيئا عن كواليس الرّشوة والمرتشين، ومع ذلك لم أطلب من محدّثي أن يقيّم لي المبلغ، كنتُ أخبره فقط عن الأمر مستنكرا مستغربا وأنتظر منه السّلوك نفسه.

كنتُ أتوقّع أن يُحَوْقِل الرّجلُ ويستعيذ بالله من كلّ شياطين الإنس وحتىّ الجنّ إن كان لهم يد في انتشار سرطان الفساد.. لكنّ الرّجل تجاوز ذلك وراح يقيس الحادثة على أشباهها ليتحفني بتلك النّتيجة وهي أنّ المبلغ زهيد، والحمد لله فقد توقّف الأمر عند هذا الحدّ ولم يطلب منّي أن أخبر قريبي بضرورة رفع المبلغ المطلوب حتّى لا يظلم "القوم" ويحرمهم حقّهم "الطّبيعي" في الحدّ الأدنى من قيمة الرشوة...!!!

كثيرٌ من النّاس طيّبون في أنفسهم، بعيدون عن كلّ شبهات الرّشوة والمحسوبيّة، لكنّ الوقوف في ذلك المربّع والاكتفاء به لا يحرّك ساكنا في مياهنا الرّاكدة، وأضعف الإيمان في هذا الشّأن هو الإنكار القلبيّ واللّفظيّ، والتّعبير عن الامتعاض والاشمئزاز والكراهيّة لهذه السّلوكيّات حتّى لو كان المتورّط فيها أخًا أو ابنًا أو أبًا أو قريبًا أو صديقًا عزيزًا، وحتّى لو كان هذا المتورّط هو الطّرف الأضعف الذّي اضطرّته الظّروف أن يقدّم أموالا لدفع ظلم أو استرجاع حقّ.

# أنا المواطن البسيط

متعلّم ومحترم ويعلن دائما حرصه على المصلحة العامّة وتطبيق القانون، ويؤمن بضرورة الوقوف في وجه عصابات الفساد والمحسوبية التّي تتفنّن في التّلاعب بالقوانين ومن ثمّ مخالفتها.. كان يجري اتّصالا هاتفيّا، ويبحث عن جاره فلان في المستشفى الكبير بالمدينة، لأنّ ابنته في حاجة إلى زيارة الطّبيبة، ولا بدّ، على حدّ زعمه، أن يوصي عليها من البداية، وإلا فلن يهتمّ بها أحد.

وفي معرض الحديث قلتُ لزميل مرّة: إنّني مشغول هذا الأسبوع فقريبي سيدخل المستشفى الفلاني.. فبادر بسؤالي: هل لك علاقات هناك..؟ إذا أردت فإنّني أعرف من يستطيع مساعدتك.. فاعتذرتُ له مُؤكّدا أنّ قريبي قد حصل على موعد وسيباشر العلاج، ولا أظنّ أنّ هناك ضرورة للاتّصال بفلان أو علاّن.

وقلتُ لقريب لي كان حديث عهد بالزّواج، ويشارك والديه السّكن والمعيشة: أوْدِع ملفّا لدى الجهات الحكومية التّي توزع مساكن على المواطنين، فبادَرَ بالردّ: ومن يعرفني في الإدارة حتّى يعطيني سكنا..؟

ويتكرّر ذلك السّؤال غير البريء في مجتمعنا بشكل يوميّ: هل تعرف أحدا في البلديّة..؟ هل تعرف موظّفا في الولاية..؟ هل تعرف المدير الفلانيّ..؟

وعندما تكبر الملفّات، ويزيد حجم التّعاملات، ويعظم شأن القضايا أتوقّع أن يتحوّل السّؤال تلقائيّا إلى: هل تعرف الوزير الفلاني..؟ هل تعرف شخصيّة سامية في الميناء..؟ هل تعرف المدير العام في الوزارة الفلانية..؟

ما أحوجنا جميعا إلى محاصرة ذلك السّؤال والقضاء على الأسباب الكامنة وراءه، ومن ثمّ العودة إلى الأصل وهو أن نتوجّه إلى الإدارة وقلوبنا بيضاء من كلّ شكّ، ونتقدّم إلى الشّبابيك ورؤوسنا مرفوعة، ونطالب بحقّنا في الخدمة دون مِنّة من أحد، لأنّ مبرّر وجود المسؤول أو الموظّف هو أنا.. أنا المواطن العاديّ البسيط.

# القانون فوق الجميع

كان أكثر من في المجلس يمتهنون السّياقة وعلى احتكاك يوميّ بحواجز عناصر الشّرطة والدّرك الوطنيّ، وكان من الطّبيعيّ أن يكون الحديث عن آخر "الخرجات" وأحدث الأخبار في مجال الكرّ والفرّ.

تفنّن عدد من الحاضرين في الحديث عن براعتهم في التّحايل على رجال الأمن، وأسهبوا في الحديث عن حالة الفَلَتَان القانونيّ ووصلوا إلى تلك الخاتمة المعروفة سلفا وهي أن لا أحد يلتزم القانون، حتّى تكاد تتخيّل، وأنت تستمع إلى مثل هذه الأحاديث والأحكام، أنّنا في الصّومال حيث لا تعني كلمة الدّولة والقانون هناك شيئا لأنّها مفقودة أصلا من القاموس الشّعبيّ منذ سنوات طويلة..!

سرَد أحد الحاضرين قصّة كانت جديدة بالنّسبة لي لكنّ معناها وفحواها ورسالتها السّلبية كانت قديمة ومعروفة فقد وصلتني من خلال قصص أخرى مشابهة.. والقصة تتمثّل باختصار في شرطيّ شابّ استلم عمله في حاجز ثابت، وأعلن ذلك الشّاب النّظيف أنّه سيطبّق القانون على الجميع ولن يفرّق بين المواطنين إطلاقا..

جاءت إحدى شاحنات "فلان" وأوقفها الشّرطيّ بسبب مخالفة قانونيّة، وحسب التّوصية فإنّ السّائق يترك الأوراق دون أدنى كلمة مع الشّرطيّ ويخبر "المعلّم الكبير".. وحدث ذلك بسرعة البرق، حسب الرّاوي، وكانت المفاجأة حيث كان أحد المسؤولين الكبار عند الحاجز يزمجر وينتصر لذلك "الفلان"، ويقول بكلّ وقاحة للشّرطيّ: هاهو القانون، سوف أخصم لك شهرا ثمّ اختر منطقة نائيّة لأنقلك إليها..!! وندم الشّرطيّ الشّاب ورضي بالخصم، وصار همّه فقط أن لا يُنقل إلى "الجحيم".

أحاديث سلبيّة قاتلة ويأس يتعاون الكثيرون على نشره وترسيخه.. لكنّ الصّواب أن يعمل كلٌّ حسب موقعه ويشرع في تطبيق القانون على نفسه والدّعوة إلى ذلك، وعندها فقط سنفوّت الفرصة على "صيّادي المياه العكرة" لتبدأ مرحلة "القانون فوق الجميع" بكلّ تجليّاتها الجميلة.

# ادفنوها أو أصلحوها..!!

المجاملات والتّحيات قد انتهت للتوّ ولا بدّ لي من إرهاف سمعي لاستقبال عريضة طويلة من الشّكاوى وكمّية ضخمة من المظالم وقصص "الحُقْرَة" وغيرها، وكل ذلك لأنّني صحفيّ رغم أنّني جئت في زيارة عائليّة لتلك القرية النّائيّة المُحَاطة بكثبان الرّمال الذّهبيّة.

بدأ أكثر الحاضرين سخريّة بقوله: اطلب من المسؤولين أن يرمّموا الجدران لأنّها ستسقط من كثرة اتّكاء الشّباب عليها، ثمّ انخرط آخرون في تلك "المَنَاحَة" المعروفة عبر عدّ المشاريع المعطّلة والوعود الكاذبة والشّباب المُهَمّش وآخرهم الطّبيب الوحيد الذّي أنجبته القرية.

ولأنّ الهجوم هو أفضل وسيلة للدفاع، فقد سألتُ القوم عن دورهم فيما يحدث..؟ فاستمعت إلى ذلك الرّد التّقليديّ المستهلك وهو: ومن يسمعنا..؟ ومن يقيم لنا وزنًا..؟

اتّجهتُ إلى أكثر الشّباب استهتارا، وكان يوزّع دخان سيجارته عبر الهواء، وسألته عن عدد المرّات التّي قصد فيها البلديّة شاكيا محتجًا، فتساءل عن جدوى ذلك، وانطلق في استنساخ قصص ساخرة عن المسؤولين وانشغالهم في قضاياهم الخاصّة وحاجات أقاربهم وأصدقائهم.

قلتُ للشّباب: الأمر في أيديكم أنتم فدعوا التّشكّي وبادروا إلى تشكيل جمعية نشطة، وبعد أن تكتمل لكم الأدوات القانونية تحرّكوا وفق خطّة إعلامية وتحسيسيّة مدروسة حيث تُقابلوا جميع المسؤولين درجة بدرجة، وتتّصلوا بجميع مراسلي الجرائد الوطنيّة ووسائل الإعلام الجوارية وتظلّوا على تماس دائم بالإذاعة الجهويّة..

وبعد عام كامل ستكون قريتكم على كلّ لسان.. وحينها سيقول كلّ مسؤول له علاقة بمشاكلكم: ادفنوا هذه القرية أو اصلحوها.. ولأنّي على يقين بأنّه ليس فينا من يفكّر، حتّى بينه وبين نفسه، في مسألة الدّفن هذه فلن يظلّ سوى الإصلاح وتحريك المشاريع ودفع عجلة التّنمية الحقيقيّة..

ما أحوجنا فقط إلى ثقافة النَّفَس الطّويل والمطالبة الهادئة الهاديّة الهادفة.

# ليس عارية مستردّة

الوقت بعد الظّهر، والمكان فرع بلديّ صغير بإحدى ضواحي العاصمة، والموظّف الوحيد كان يقضي بعض الوقت أمام الباب الخارجيّ حيث تندر زيارات المواطنين في هذه الفترة ويخفّ الطلب على الأوراق والوثائق التّي أضحت جزءا من كيان المواطن الجزائريّ.

ما إن رآني ذلك الموظّف حتّى سبقني وتخندق وراء مكتبه واستعدّ لواحدة من العمليّات الروتينيّة التي خبرها وخبرته على مدى سنوات.

ولم أقصّر من ناحيتي فوضعتُ أمامه عددا من الأوراق لتصديقها، فراح يضربها على التّوالي بأربعة أختام متنوّعة وأعقب كلّ ذلك بالتّوقيع.. عمليّة مملّة جدّا لو كان عدد الأوراق بالعشرات، وهو أمر يتكرّر كثيرا في إداراتنا المتخمة بالبيروقراطيّة وثقافة الورق وصور طبق الأصل وما شابه ذلك.

شكرتُ الموظّف وانصرفت، ثمّ تذكّرت أنّني في حاجة إلى شهادة ميلاد فأحضرتُ الدّفتر العائليّ من السّيارة، وقلت مازحا للرّجل: إنّ حسن معاملتك وسرعة خدمتك أعجبتني فعدت من جديد.. وهو يسلّمني الشّهادة رأيتُ أن أخفّف عنه بعض ما فيه من روتين قاتل فأكبرتُ فيه تواضعه وطيبته، فردّ: إنّ الدنيا فانيّة ونحن في الخدمة دائما، وإذا احترَمنا المواطن احترمناه وإذا لم يحترمنا لا نحترمه..

لم يكن الوقت مناسبا للدّخول في نقاش حول هذا الرّأي، ولم استسغ كسر الصّورة الإيجابية التّي تشكّلت في ذهني حول ذلك الفرع الإداريّ.. ومع ذلك رحتُ أفكّر في مثل هذا الموظّف الطّيّب وأمثاله ممّن يسيئون إلى أنفسهم بمثل هذا الكلام، لأنّ مقابلة الحسنة بالحسنة تقوم بها حتّى بعض الحيوانات الأليفة وبشكل غريزيّ، وتصدر أيضا عن شرار النّاس وجَهلَتِهِم وأجلافهم..!

لكنّ التّميّز، كلّ التّميّز، في الرّد الحسن على التّصرّف السّيئ، وفي مقابلة الإساءة بالإحسان.. لأنّ حسن الخلق واحترام الآخرين ليس عارية مستردّة.

# السّلاح الفتّاك

مليون تدخّل حَرّرَت خلالها مصالح الرّقابة وقمع الغشّ مائة وتسعين ألف مخالفة، وعلى أساسها تعرّض مائة وخمسة وستون ألف تاجر لمتابعات قضائيّة وتمّ غلق عشرة آلاف محلّ تجاريّ، أمّا السّلع المحجوزة فقاربت قيمتها التّسعين مليار سنتيم، وفوق كلّ ذلك تعاني السّوق الوطنيّة من سلع غير مطابقة للمعايير بلغت نسبتها أربعين في المائة، والكارثة أنّ أغلبها يتعلّق باللّحوم ومشتقّاتها والألبان والمشروبات والمرطّبات والمثلّجات.

إنّها أرقام تعود إلى العام ألفين وتسعة.. عام الأعراس الكرويّة والتّأهّل للمونديال.. أرقام كشف عنها وزير التّجارة، مصطفى بن بادة، بمناسبة ملتقى وطنيّ حول الأخطار الغذائيّة.

الوزير استعرض أيضا إحصائيات التّسمّم الغذائيّ الماضيّة وتحدّث عن التّدابير المتّخذة للتّقليل من مثل هذه المخاطر خاصّة مع دخول فصّل الصّيف، وقال إنّ المسؤوليّة مشتركة بين وزارته والجمعيّات المهنيّة بالإضافة إلى مصالح الأمن المختصّة وجهات أخرى متعدّدة.

كلام جميل..

والنّجاح لتلك الجهود المشكورة هو ما يتمنّاه ويرجوه جميع العقلاء..

نجاحٌ يكبح جماح الغشّاشين وينظّف الأسواق منهم ومن سلعهم الضّارة.. لكن (دون ذلك خَرْط القَتَاد) كما يقول المثل، لأنّ سلاح المراقبة وحده لا يكفي، خاصّة أنّ انتشار آفة الفساد جعل المراقب في بعض الأحيان في حاجة إلى مراقب والمراقب الآخر في حاجة إلى مراقب رابع.. وهلمّ جرّا...!!

لكن (خَرْط القَتَاد) يصبح ضمن الممكن واليسير المتاح بعد أن يتدّخل ذلك السّلاح الفتّاك.. سلاح الوعي واليقظة لدى المواطن المستهلك بعد أن يودّع عوالم السّلبية والتّجاهل، ويتحرّك بإيجابية سواء بإبلاغ الجهات المسؤولة أو الاحتجاج لدى التّاجر المعني بالأمر ومقاطعة السّلع المشكوك في معاييرها وصلاحيتها.. لا بدّ من بعث ذلك السّلاح لأنّ الأمر يهمّ الجميع دون استثناء.

# ضع نفسك في مكان الآخر

طفلٌ يبلغ من العمر ثلاث سنوات ونصف يسير بجانب والده في طريق عامّ بحيّ حضريّ عامر بالسّكان والمؤسّسات الحكوميّة والخاصّة.. تنزلق رجل الطّفل فجأة في بَالُوعَة لتصريف المياه القذرة كانت مملوءة ومفتوحة دون غطاء ودون حاجز أو لوحة إرشادية تَحُولُ بين النّاس والاقتراب منها خطأ أو عمدًا.

القصّة كانت فظيعة بعد ذلك حيث سقط الطّفل البريء بالكامل في البالوعة، ومع أنّ الذّين شاهدوا الحادثة هرعوا لإنقاذه فقد فارق الحياة لأنّ المياه القذرة تسربت بقوّة إلى جوفه وأوقفت تنفّسه فوصل إلى المستشفى جثّة هامدة.

الحادثة وقعت في حيّ معروف بإحدى مدن الجنوب، لكنّها تكرّرت كثيرا وبأشكال متعدّدة في أكثر من مدينة وقرية وطريق عامّ..!

والقاسم المشترك هو الإهمال وترك الأشغال دون إكمال لفترات تطول أو تقصر، والسّبب هو انعدام روح المسؤوليّة وفقدان خُلق الإحساس بالآخرين من جانب الجهات المسؤولة، أمّا من جانب المواطن فهو تلك السّلبية المقيتة وضعف ثقافة المطالبة حتّى إذا وقع الفأس في الرأس وحلّت المصيبة تذكّر الجميعُ التّقصير الذّي كان ظاهرا للعيان وكان في حاجة فقط إلى مراجعة أو مكالمة أو رسالة شكوى أو مبادرة فردية لإصلاح الخلل دون انتظار جزاءٍ أو شكرٍ من أحد.

إنّنا في حاجة ماسّة إلى نشر ثقافة وخلق الإحساس بالآخرين ومراعاتهم، وهو أمر سهل عندما تصدق العزائم وتعلو الهمم، ولا يأخذ الأمر منّا أكثر من تمارين نفسيّة بسيطة حين نقتطع من أوقاتنا يوميّا لحظات للتّفكير والتّأمل ووضع النّفس في مكان الآخر قبل الإقدام على كثير من الأعمال والتّصرفات والتّأجيل والتّسويف واللاّمبالاة وترك الأشغال دون إكمال والحفر دون ردم والطّرقات دون تسويّة والآبار غير المستعملة دون أغطيّة والبالوعات مكشوفة للعيان.

# في صناعة النّجاح
# والنّبوغ

# رحلة ممتعة.. ماذا لو جرّبناها..؟

أزهار وورود وبالونات ملوّنة وأعلام مرفرفة، وممرّات وقاعات نظيفة وجدران مزيّنة بلوحات زاهيّة، وآيات قرآنية وأحاديث نبويّة شريفة تحثّ على العلم وتؤكّد قيمة العلماء وتشجّع على الإتقان والتّفاني والتّفوق والنّجاح، وحِكم وعبارات إيجابيّة قويّة وأبيات شعريّة.

وإلى جانب كلّ ذلك ترى طاقما متكاملا متجانسا من المدراء والموظّفين والمشرفين والمستخدمين والحرّاس.. هذا الطّاقم لا همّ له، في ذلك المكان الجميل وتلك المناسبة السّعيدة، إلاّ السّهر على إنجاح البرنامج ومساعدة أبطاله الحقيقيّين، ولذا ترى الابتسامة تسبق كلّ حركة أو كلمة، وتدرك بسهولة أنّ الاستعداد للخدمة وتقديم المساعدة هو القاعدة التّي لا تعرف الشّذوذ، وفوق ذلك سعادة بنجاح العمل وأمل في وصول القافلة بسلام إلى الهدف المبتغى.

إنّ المكان الذّي سبق التغزّل به لا يجري إعداده لمؤتمر ستحضره شخصيّة نافذة، إنّما هو مناخ ووضع مُتَخَيّل لمؤسّسة تعليمية عموميّة تستقبل تلاميذها لامتحان نهائيّ انتظروه طوال العام وأعدّوا له العدّة منذ أشهر عديدة، بل منذ سنوات عندما وطئت أقدامهم تلك المؤسّسة في أوّل أيّام مرحلتهم الدّراسية.

إنّها إجراءات وخطوات وعمليّات بسيطة عند التّطبيق على أرض الواقع ولا تحتاج إلى أكثر من فريق عمل يؤمن بحقّ الطّالب في جوّ مناسب لجميع الامتحانات خاصّة النّهائية منها، بعد أن يُحدِثَ طلاقا بائنا بينه وبين الأفكار الباليّة والتّقاليد المدّمرة والإجراءات والتّصرّفات السّلبية والتوتّر الذّي يظنّ كثيرون أنّه قدر مقدور أيّام الامتحانات النّهائية.

إنّها مسؤولية مشتركة بين الأسرة والمؤسّسة التّعليميّة ولجنة الحيّ وإمام المسجد وسائق الحافلة وشرطيّ المرور وحارس البوّابة، وكلّ من له أدنى علاقة بالطّالب أيّام الامتحانات النّهائيّة.

مسؤوليّة تدعونا إلى تحويل الامتحانات إلى رحلة ممتعة.. فماذا لو جرّبنا ذلك..؟

# المرونة والنّبوغ

الإعلان عن نتائج الامتحانات النّهائية، بمختلف مراحلها، لا ينظر إليه البعض إلاّ بمقدار العلاقة المباشرة بهذا الحدث عبر مترشّح للامتحان في هذه المرحلة الدّراسية أو تلك، وبمقدار علاقة القرابة مع ذلك المترشّح، وعدا ذلك فهو بالنّسبة للبعض خبر عاديّ جدّا سرعان ما يأتي ما يغطّي عليه في عالم المشاغل اليوميّة المتداخلة.

والحقيقة أنّ إعلان نتائج الامتحانات النّهائية، خاصّة البكالوريا، يمثّل منعطفا ينبغي لنا جميعا الوقوف عنده للتّأمل ومراجعة المسيرة، ومن نافلة القول إنّ المسؤولية عن الفشل أو النّجاح تقع على عاتق الجميع كلّ حسب موقعه ودرجة مسؤوليته وتأثيره في مجتمعه الصّغير والكبير.

وعلى هذا الأساس علينا أن لا نسارع بتوجيه أصابع الاتّهام إلى التّلميذ وحده ونحمّله مسؤولية الفشل أو العلامات المتدنّية التّي حصل عليها؛ لأنّ المسؤولية مفرّقة على الجميع، لا لتتلاشى وتُوجّه ضدّ مجهول، بل لينتبه كلٌ إلى حجم تقصيره وقلّة تدبيره، ويحذر في قابل الأيّام ويسدّ الثّغرة التّي يقف عليها.

ويأتي المعلّم أو الأستاذ في قائمة المسؤولين عمّا حدث من تقصير أو رسوب، لأنّه المولّد الرّئيسيّ للطّاقة التّي تسري في جسم العمليّة التّربوية برمّتها، وهكذا فكلّ خلل يعود عليه بنصيب وافر أكثر من غيره. وفي هذا الشّأن يبالغ البعض فيرفضوا أساسا فكرة تلميذ ناجح وآخر فاشل، ويستبدلوها بمعلّم ناجح وآخر فاشل، ويدعون إلى جعل هذا الميزان أساسا في تقييم نتائج العمليّة التّعليميّة.

ويوجّه البعضُ دفّةَ السّفينة بشكل آخر عندما يعيدون الأمر كلّه إلى المناهج التّربويّة، ويقولون إنّ فشل التّلميذ هو فشل للمنهج الدّراسيّ أوّلا وأخيرا، ويدعون من هذا المنطلق إلى مناهج تتميّز بالمرونة ومسايرة قدرات وميول كلّ تلميذ حتّى يكتشف هواه العلميّ أو المهنيّ، ليتمكّن من الولوج إلى عالم النّبوغ والتّميّز.

# المسيرة الصّحيحة

كنّا في طريق العودة من برنامج تدريبيّ مفيد وجديد، وكانت المعنويّات عالية وروح التّفاؤل والانشراح هي السّائدة، وكنتُ أقود السّيّارةَ بينما يتبادل الزّميل الجالس إلى جانبي الحديث مع زميلين في المقعد الخلفيّ.

كان الزّميل يتحدّث عن أيّام الدّراسة الجامعيّة، وعن مادّة الرّياضيات على وجه التّحديد، فقال إنّ أستاذا "محترما" امتحنهم في إحدى مسائل هذه المّادة المتشعّبة وجَمَعَ الأوراق وانفضّ الطّلاب إلى عطلة كانت على الأبواب، وبعد ذلك تأخّر صاحبنا عن الالتحاق بالدّراسة أسبوعا، وعندما حضر وصله الخبرُ المفرح المحزن من زملائه.

أعلن الأستاذُ أنّ جميع الحاضرين لم يتمكّنوا من حلّ تلك المسألة، وأنّ طالبا واحدا توصّل إلى ذلك الحلّ وهو غائب عن الفصل، لكنّ الحلّ مخالفٌ للطّريقة التّي شرحها الأستاذ المحترم داخل الفصل.. ويواصل الأستاذ بأنّه أطْلع عميد الكليّة على هذا الأمر.

رغم انشغالي بقيادة السّيارة في الطّريق السّريع أكملتُ المشهدَ بسرعة في ذهني: فرحٌ شديدٌ أبداه العميد، وتنويه بالطّالب وذكائه، وجائزةٌ أو شهادة شرفيّة تقدّمها الجامعة لهذا الطّالب المتميّز.

وأكمل الزّميل القصة وأطلّت خيبة الأمل برأسها: أعلن الأستاذ المحترم بحزم أنّ العلامة الممنوحة للطّالب هي صفر، والمصيبة الأعظم أنّ عميد الكليّة وافقه على ذلك.

الحمد لله فقد كان الطّالب ناضجا ولم يُصب بإحباط و لم يترك الدّراسة ويفكّر في "الحرقة" أو غيرها، ومن فضل الله عليه أنّه أكمل دراسته وهو مهندس محترم يؤدّي عمله باقتدار وكفاءة في إحدى الشّركات الوطنيّة.

إنّ الدّول التّي سبقتنا في ركب المدنيّة والتّقدّم العلميّ قد آلت على نفسها من البداية رعاية كلّ موهوب وتشجيع كلّ متميّز وفتح المجال أمام كلّ من يأتي بالجديد المفيد.. لأنّ المسيرة الصحيحة تبدأ من هذا المنعطف.

# المفتاح السّحري

حلّ النظام الجديد على طلاّب الثّانوية وحمل معه رياضيات حديثة لم يألفها بعض الأساتذة، وكان بينهم مصريّ وافد وجد نفسه في ورطة حقيقيّة لأنّه يدرّس مادّة الرّياضيات لطلاّب السّنة الثّالثة ثانويّ، شعبة رياضيّات.

لم يقف طلاّب القسم النّهائيّ مكتوفي الأيدي يتبادلون الشّكاوى ويصبّون جام غضبهم على الإدارة والوزارة والحظّ وجميع من صادفهم حتّى أنفسهم كما يفعل بعض مرضى النّفوس في أيامنا هذه..!

لم ينتظروا المساعدة من أحد مع أنّ طلبها مشروع في مثل هذه الحالات.. لم يرفعوا الرّاية البيضاء ويجلسوا لتلقّي العزاء في الباكالوريا ذلك التّاج الذّي يَسْعَدُ الآباءُ والأمّهاتُ برؤيته فوق رؤوس الأبناء.. لقد عقدوا العزم وأقسموا الأَيْمَان على الكدّ والجدّ والنّجاح وقالوا للأستاذ الوافد: نَمْ قَرِيرَ العين فلن نطالبك بشيء فوق طاقتك، ثمّ اجتمعوا على موائد الرّياضيات وبذل كلّ طالب ما عنده وتكاملت الجهود وأثمرت.

إنّها ملحمة حقيقيّة شهدتها ثانويّة عبد العزيز الشّريف بالوادي قبل ثلاثين عاما، حسب رواية الأستاذ عبد القادر لامعة أستاذ العلوم السّابق والمستشار التّربويّ الحاليّ بثانويّة الرقيبة.. وكانت نتيجة تلك الملحمة، بعد أن انقشع الغبار ومرّت شهور العام الدّراسيّ بحلوها ومرّها، النّجاح لأكثر طلاّب ذلك الصّفّ المثابر، وبنسبة عاليّة لم تعرفها تلك الأعوام.

من المؤكّد أنّ تلك الملحمة والتّجربة النّاجحة تكرّرت في ولايات أخرى بشكل أو بآخر، والأمل معقود أن تتكرّر في جميع ولايات الوطن بعد سلسلة الإضرابات التّي طالت قطاع التّربية والتّعليم ومسّت بشكل أساسيّ طلاّب الأقسام النّهائيّة الثّانويّة والمتوسّطة..

وهكذا فعلى طلاّبنا أن يَسْخَرُوا من فكرة السّنة البيضاء، ويتوكّلوا على الله ثمّ يبذلوا قصارى جهودهم في المراجعة والتّحضير ويصطحبوا معهم دائما المفتاح السّحريّ، وهو القناعة التّامة بأنّهم جديرون بالنّجاح وقادرون على العمل من أجله والظّفر به.

# حافظوا على عباقرة المستقبل

عندما كان في الخامسة عشر من عمره أخبره معلّمه أنّه لن يتمكّن أبدا من إنهاء دراسته والأفضل له ترك المدرسة وتعلّم حرفة مناسبة.. عمل الشّاب بالنّصيحة وظلّ على مدار السّبعة عشر عاما التّالية من حياته يعمل بائعا متجوّلا، فقد قال له معلّمه بأنّه غبيّ، ولا فائدة ترجى منه..!

وعندما بلغ سنّ الثّانية والثّلاثين حدث له تحوّل مذهل في حياته.. دخل تقييما للذّكاء واكتشف أنّه عبقريّ حيث وصل منحنى ذكائه إلى مائة وواحد وستّين.. بدأ يتصرّف كعبقريّ ودرس وألّف كتبا وسجّل عددا من براءات الاختراع وأصبح رجل أعمال ناجح.. إنّه أحد النّماذج الحقيقيّة في بلاد الغرب، وهو محظوظ دون شكّ حيث تتوفّر هناك مراكز قياس الذكاء، فاستطاع النّهوض من الكبوة وتدارك الأمر قبل فوات الأوان.

سؤال مهمّ للغاية نطرحه على أنفسنا بين يدي كلّ دخول مدرسيّ جديد ونحن نستمع إلى أرقامه الكبيرة بين مبانٍ ومطاعم وتجهيزات وكتب ومساعدات للمعوزين، وبعد ذلك لوائح وتوجيهات إداريّة من الجهات العليا المكلّفة بالتّربية والتّعليم.

السّؤال يقول بكلّ بساطة: كم عدد العباقرة الذّين يتجوّلون بيننا ويتسكّعون في الطّرقات ويتصرّفون مثل الأغبيّاء..؟

فقط لأنّ هناك من قال لهم إنّكم لستم أذكياء بما فيه الكفاية..! حُكْمٌ ربّما صدر من الوالدين أو الأقارب أو الجيران.. وقد يُعذَرون في ذلك..

نعم قد يُعذر أولئك لأكثر من سبب.. لكنّ هناك من لا يُعذر، بل ويتحمّل مسؤولية إصلاح أيّ خلل نفسيّ عند التّلميذ.. إنّه المعلّم المربّي..

فلينتبه كلّ معلّم وهو يؤنّب تلميذه خاصّة في المراحل التّعليميّة الأولى، وليحذر التّقييم والحكم المتعجّل، ولتكن دَنْدَنَتُه دائما في معاني التّحفيز والتّشجيع والتّبشير بالمستقبل الزّاهر المزدحم بالنّجاحات والإنجازات والاختراعات.

# حتّى لا يخطّطوا للفشل

هل يمتلك معظم الشباب أهدافا..؟ من الواضح أنّ الإجابة هي لا، ويمكنك أن توقف مائة شابّ في أيّ ساحة عامّة وتسأل كلّ واحد منهم: ما الذّي تفعله لكي تضمن الفشل المؤكّد في الحياة..؟ وبعد استيعاب الصّدمة الأولى للسّؤال سيقول لك كلّ شابّ: ماذا تعني..؟ ما الذّي أفعله لأضمن الفشل في الحياة..؟! إنّني أعمل من أجل النّجاح لا الفشل.

المشكلة أنّ كثيرين يتصوّرون أنّهم سيحقّقون النّجاح الذّي يريدونه، لكنّ الاحتمالات ليست في صالحهم حقّا، وإذا تتبّعنا مسارهم نجد عددا محدودا فقط هو الذّي يقترب من النّجاح.

الفشل لا يرجع إلى نقص أو انعدام الفرص لأنّ الحياة تقدّم للجميع العديد من الفرص الفريدة.. فهل الأشخاص الذّين لا ينجحون في الحياة يخطّطون للفشل حقا..؟ ربّما لا يكون ذلك دقيقا، لكنّ المؤكّد أنّهم لا يخطّطون لأيّ شيء.. إنّ الدّراسات تتحدّث عن أقلّ من 3% يخطّطون لحياتهم في هذا العالم.. فكُن منهم.

الكلام السّابق مقتبس من كتاب (أراك على القمّة) للأمريكيّ زيج زيجلار، وهو يتحدّث عن واقع الحال في مجتمعات يُفترض أنّها أكثر منّا تقدّما ومدنيّة ووعيًا، فكيف هو الحال عندنا يا ترى..؟

إنّ الإدارات والمؤسّسات الرّسميّة تتسابق نحو توفير الشّروط المناسبة لكي يجلس التّلاميذ على كراسي الدّراسة وقد اكتملت الصّورة المطلوبة من لباس موحّد وكتب وقرطاسيّة وطاقم تعليم وإشراف وخدمة ومطاعم وحتّى حافلات (تضامن) لأولئك الذّين يعانون من بعد الشقّة.

ما سبق شيء رائع للغاية والقائمون عليه مشكورون في الدّنيا، ومأجورون بإذن الله في الآخرة..

فقط وجب أن نذكّر أنفسنا بأهميّة بناء وصناعة الأهداف لدى التّلميذ لتؤتي تلك الجهود والمصاريف الهائلة أُكُلَهَا عندما يصير أطفالنا شبانًا يحملون بين أيديهم مستقبل البلاد.

# النّموذج.. أضعف الإيمان

مشكلة كبيرة.. لم يتجاوبوا معي، بل تكلّموا مع أساتذة آخرين عنّي وكيف أنّني أتحدّث بمستوى أكبر منهم لن يفيدهم في دراستهم.. هذا بعض كلام أستاذ ثانويّ مُسْتَخْلَف بعد أسبوع من تجربته الأولى أمام التّلاميذ.

كلام نسمعه باستمرار من أساتذة يتألّمون لحال الجيل الجديد خاصّة إذا قارنوا بينه وبين أبناء أجيال الاستقلال الأولى وكيف عانوا من نقص الوسائل وبعدِ الشّقّة وبدائيّة حافلات النّقل لكنّهم صمدوا وكافحوا وسهروا اللّيالي فحقّقوا المأمول وهاهم كوادر منتشرة في مختلف مفاصل مؤسّسات الدّولة.

هدّأتُ من روع الأستاذ الشّابّ بعد أن شكرتُ له غيرته على العلم والتّعليم والمتعلّمين، ثمّ قلت له: إنّ الوضع صعب فعلا، لكن من قال إنّك مطالب شرعا وعقلا وقانونا بما لا تطيقه.. اجتهد فقط في أن تؤدّي دروس المنهج المطلوب منك، لكن احرص، وهو الأهمّ في تقديري، أن تترك أثرًا بين السّطور على مستوى القيم والتّفكير وبناء الأولويّات والاهتمام بالأهداف والرّسالة والمعنى الصّحيح للوطنيّة واحترام القانون وهكذا.. وحتّى لو عجزت عن ذلك فلا أقلّ من أن تكون إيجابيا داخل فصلك.. مبتسما، ناصحا، مشجّعا، متفائلا، فاتحا لآفاق المستقبل، ومبشرًا بالخير القادم.

إنّ حال مؤسّساتنا التّعليمية ليس سوداويًا تماما كما يحلو لبعض المتشائمين تصويره، ومع ذلك نسلّم جدلا بالأمر لمن أراد لنفسه النّظر بعين السّخط وحدها، لكنّنا نطالبه بالتحرّك على مستواه الشّخصيّ وبذل ما في وسعه، وأضعف الإيمان في هذا المضمار أن يكون أنموذجا للمعلّم الذّي تحتاجه المرحلة فيترك علامة إيجابية بارزة في مسيرة تلاميذه.

ومن منّا لا يتذكّر أستاذا أو معلما أثّر فيه أكثر من غيره بالجدّية أو احترام الوقت أو الدّقّة أو النّظام أو الرّحمة والشّفقة على الطّلاب ومراعاة ظروفهم الأسريّة والماديّة والبيئيّة.

# بُوكَه والدّرْبُوكَه

تصل إلى مسامعك أصواتُ المغنّين والمغنّيات من مئات الأمتار، وعندما تقترب أكثر تلاحظ أعدادا معتبرة من النّساء يدخلن أو يخرجن من ذلك المنزل الذّي تنبعث منه الأغاني.

ليس الأمر مجرّد (دَرْبُوكَه) ومعها الجارة (بُوكَه) وقد جاءت لترفع عقيرتها وتفرح مع جارتها.. إنّه (ديسك جوكي) وما أدراك ما ذلك الجهاز المزعج..!

أمّا المناسبة فليست عرس الابن البكر أو الانتهاء من اللّيسانس أو النّجاح في الباكالوريا أو حتّى شهادة التّعليم المتوسّط.. إنّها الخامسة ابتدائيّ أو (السّيزيام) كما يحافظ البعض على تسميته.. وليته كان مثل (سيزيام) ستينيّات وسبعينيّات القرن الماضي الذّي يعادل باكالوريا اليوم إن لم نبالغ أكثر من ذلك.

وبداية هنيئا لأصحاب تلك الأفراح بالرّوح الخفيفة والأرجل المتحفّزة دائما نحو الرّقص والأيادي الجاهزة للتّصفيق في كلّ وقت..! هنيئا لكم لأنّ الفرح مطلوب ومشروع..

لكن مهلاً.. رحمة بذلك التّلميذ أو التّلميذة.. فإذا كانت مظاهر نجاحه الآن بهذا الشّكل، فكيف ستكون حالته النّفسيّة وهو يستعدّ للباكالوريا..؟ وما هو مقدار التّوجّس الذّي سينتابه والخوف من الفشل الذّي سيراوده، وقد أعدّ أهله العدّة سَلَفًا لأعراس أشبه بقصص ألف ليلة وليلة..؟!

إنّ المبالغة في مظاهر الفرح قد تولّد ردود فعل سلبيّة تجاه هذه النّجاحات والشّهادات، وقد تثير مخاوف مرضيّة عند البعض، وبالتّالي الاتّجاه نحو التّسرّب من المسار الدّراسيّ بأكمله.. كما أنّ مراعاة التّوازن خلال احتفالات النّجاح هو خلق وحكمة، لأنّ بين أبناء الجيران والأقارب والأصدقاء من تعثّر هذا العام ويقتضي الموقف أن لا نشعره بأنّ الرّسوب هو نهاية العالم..!

فكم لفظت المدارس من العظماء وكبار المخترعين.. لكنّهم اجتهدوا حتّى حفروا أسماءهم في ذاكرة التّاريخ.. وداعا للإسراف، وعودة إلى الدّرْبُوكَه والجارة بُوكَه.

# ليس قدرا مقدورا

استمعتُ إلى أحد برامج إذاعة التّكوين المتواصل وكان الحديث حول موضوع الامتحانات والتّحضير لها وكيفيّة التّغلب على العقبات للخروج بأفضل النّتائج.

أكثر من متحدّث كان في الأستوديو وفوق ذلك استمعنا إلى مداخلة مسجّلة لأستاذة متخصّصة في علم النّفس العياديّ أدلت بدلوها في الموضوع.. أفاض الجميعُ وشرّقوا وغرّبوا وحاولوا جهدهم تشخيص الدّاء للوصول إلى الدّواء فلهم كلّ الشّكر والتّقدير.

المسألة التّي كنتُ امتعض عند سماعها كلّ مرّة أثناء متابعة الحصّة، هي تأكيد المتحدّثين على القلق الذّي يصاحب الأسرة والتّلميذ والطّالب والتّوتّر الذّي يخيّم على الجميع قبل وأثناء الامتحانات..!

والخطأ في تقديري أنّ المتحدّثين كانوا ينطلقون من القلق كأمر حتميّ لا مفرّ منه ولا مهرب لأقوى النّاس قلوبًا وأصلبهم إيمانًا، فما بالنا بمرضى الوسواس وضعفاء النّفوس ومدمني الخوف من المستقبل وأَسْرَى كلام النّاس وتعليقاتهم..؟

كنتُ أتمنّى سماع كلام مفاده أنّ القلق أثناء الامتحانات ليس قدرا مقدورا وليس أساسا ننطلق منه ثمّ نبدأ رحلة البحث عن علاج له.. كنتُ أريد الاستماع إلى عبارات قويّة حول التوكّل على الله ثمّ الثّقة بالنّفس والتّحضير الجيّد والمرونة أثناء التّفكير في خيارات المستقبل بالنّسبة للطّالب والأسرة على السّواء، ومن هناك سوف يختفي شيء اسمه قلق ووسواس وتوتّر.

إنّ مسؤوليتنا عن أبنائنا ومستقبل أجيالنا تحتّم علينا التّعاون من أجل الوصول إلى ثقافة الهدوء والسّكينة والرّاحة والطّمأنينة عبر ترسيخ مفاهيم جديدة تقول للطّالب والتّلميذ إنّ العلم هو الأساس وإنّ للحياة والنّجاح أبوابا كثيرة لا تنحصر في الامتحان النّهائيّ وحده.

ابذل جهدك وانظر إلى الامتحانات التّي جعلوها مفصليّة كغيرها دون عقدة خوف من مستقبل أو قلق من انتظار أمّ وأب للنّتائج.

# في الابداع
# والعزم والاصرار

# كلمة سرّ النّاجحين

النّجاح وتحقيق الطّموحات يكاد يلازم أحلام اليقظة عند أغلب النّاس، لكنّ الفرق يظهر بعد ذلك بين أولئك الذّين يجتهدون في تحويل الأحلام إلى حقائق عبر التّخطيط والعمل والجهد المتواصل، وبين أولئك الذّين يقضون حياتهم في انتظار معجزة ما في وقت ما لتحقّق لهم أحلامهم..!

كنتُ أزوره في مكان عمله من حين لآخر، فعبّر لي أكثر من مرّة عن شوقه لحفظ القرآن الكريم كاملا في أقرب وقت ممكن، وزاد شوقه وحماسه عندما حدّثته عن تقنيات حديثة تساعد على الحفظ والتّثبيت عبر البرمجة اللّغويّة العصبيّة والخارطة الذّهنيّة.

في إحدى المرّات ونحن نتجاذب أطراف الحديث قال لي بلهفة: أريد أن أحفظ القرآن الكريم، فهل تدلّني على طريقة ما تساعدني على ذلك..؟

فبادرته بالقول: سوف أكشف لك عن كلمة سرّ، أو كلمة مرور كما هو الاصطلاح الشّائع في عالم الكمبيوتر.. هذه الكلمة سوف توصلك إلى حفظ القرآن بإذن الله.

بدت علامات الفرحة والرّضا على وجهه، وأمسك بالقلم ونظر إليّ ينتظر كلمة المرور التّي سأبوح بها..

تعمّدتُ البطء لأزيد من شوقه، وقلت له أكتب ما سأمليه عليك وستحفظ القرآن بإذن الله تعالى.. أمسك بالقلم فقلت: ج... فنظر إليّ مستزيدا، فقلت: هـ، ثم ماذا..؟ فقلتُ بعد تردّد ثمّ اكتب: د.

قال: ما هذا..؟ قلت: اربط بين الكلمات الثّلاث.. قال: لقد شكّلت كلمة جهد..!

أدرك الحيلة وضحك، فقلت له: نعم إنّه الجهد.. هو كلمة السرّ والمرور إلى كلّ إنجاز ونجاح، و كلّ النّاجحين قديما وحديثا بذلوا جهودا، وجهودا عظيمة..

وبدل أن نمنّي أنفسنا بالنّجاح علينا أن نبدأ السّير على الطّريق ونوطّن أنفسنا على بذل الجهود تلو الجهود حتّى نصل إلى المقصود.

# المكتبة "الحِمَارِيّة"

مكتبة متجوّلة على ظهور الحمير بدأت قبل أكثر من عشر سنوات بحمار واحد وخمسين كتابًا، ووصلت الآن إلى خمسمائة كتاب تحملها قافلة تتكوّن من ثمانية أحمرة، ويقودها معلّم شابّ يجوب بها القرى النّائية التّي لا تصل إليها السّيّارات ويعاني أطفالها وأشبالها وشبابها حرمانًا من العلم والمعرفة.

قصّة المكتبة بثّتها إحدى القنوات الفضائيّة العربيّة بالصّوت والصّورة، ومسرحها هو دولة كمبوديا الآسيويّة التّي عانت وما زالت تعاني الفقر والتّخلّف والفساد السّياسيّ، فضلا عمّا عانته قبل ثلاثة عقود من حكم الخمير الحُمر الشّيوعيّ الذّي أهلك الحرث والنّسل وخلّف وراءه أكثر من مليون قتيل من المواطنين.

ذلك المعلّم الكمبوديّ الشّاب لم يستسلم للوضع المأساويّ في بلاده ولم ينتظر أحدا وسارع إلى تلك المبادرة الطّريفة والمفيدة في الوقت ذاته.. يسافر على رأس قافلة الحمير إلى القرى البعيدة لينشر الوعي والعلم ويجالس الأطفال ويعلّمهم القراءة والكتابة، وهناك يشجّع أيضا على المطالعة ويُعِير الكتب للنّاس في كلّ قرية يمرّ بها ليستعيدها في جولته التّالية.

في أيّامنا هذه نسمع الكثير من الشّكاوى ونرى القليل من العمل والإبداع..!

والمرض السّائد بين قطاعات واسعة هو "الإسقاط".. إسقاط كلّ شيء على الآخرين وانتظار المعجزة ليبدأ التّغيير..! نعم لا يمكن إغفال كمّيات الإحباط الموجودة على جميع المستويات السّياسيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة، لكنّ إرهاصات هبوب رياح الخير والتّغيير والإصلاح بادية للعيان أيضا.

وهكذا فعلى منوال ذلك المعلّم الكمبوديّ يمكن أن ننسج الكثير من المشاريع والأعمال النّافعة الإيجابيّة التّي تخدم المجتمع..

نحتاج فقط أن تكون لنا رسائل إيجابيّة ورُؤًى واضحة وعزائم لا تعرف الكلل والملل، وعندها سنجد ما نشغل به أنفسنا ونصنع به سدًا دائما بيننا وبين البطالة القاتلة.

# أين عمّي الهادي..؟

بعد ثماني سنوات فقط من بزوغ فجر الاستقلال انضمّ إلى طاقم بلديّة الرّقيبة، إحدى أقدم بلديّات ولاية الوادي، ليَتَخَنْدَق هناك وراء الشّبابيك.. هكذا وجدته أنا وأبناء جيلي.. فمنذ بلغتُ سنّ الرّشد وصرتُ أراجع دار البلديّة لاستخرج شهادات الميلاد بنفسي؛ وأنا أراه مرابطا وراء الشّبّاك يستقبل المواطنين ويردّ على استفساراتهم ويصبر على ثرثرة الكثيرين وأسئلة الفضوليين و"تعتعات" بعض العجائز والمسنّين.

سنوات طويلة تجاوزت الخمسة وثلاثين عامًا صار الرّجل من خلالها يَعرف تفاصيل "العروش" والعائلات وأسماء الآباء والأجداد، ويفصل في أيّ إشكاليات تحدث في هذا الشّأن.. لقد صار مرجعا حقيقيا وموسوعة بشريّة متنقّلة، وإلى جانب ذلك اكتسب خبرة طويلة في المنطقة وعاداتها أهّلته لأن يكون متحدّثا ماهرا، كما استمع إليه الكثيرون في إذاعة سُوف الجهوية، وهو ينبّش في خفايا العادات السُّوفيّة والتّراث وما ارتبط بذلك.

إنّه الأستاذ محمد الهادي قعيّد.. لكن أين هو الآن..؟ لقد تقاعد قبل عدّة سنوات.

إنّ الذّين يُلمّون بالتّراث والثّقافة وكنوز الماضي قلّة، ولهذا طالما تصورتُ "عمّي الهادي" وتمنّيت أن أراه حاملا لمشعل الرّيادة والقيادة في جمعيّة ثقافيّة تراثيّة تهتمّ بالثّقافة وتنقّب عن الآثار وتساعد الجهات الرّسمية على إحصائها وصيانتها، وتعمل على تصنيف العادات وتوثيقها، وتساعد الشّباب على البحث عن التّراث الشّعبيّ وتدوينه، وإحياء العادات الغذائيّة الصّحيّة والخبرات الزّراعيّة المحليّة وغيرها وإخراجها للجيل الجديد..

أتخيّله وسط مجموعة من الشّباب المتخصّص، وحتّى الهواة، يستفيدون من خبرته الطّويلة، ويوجّه طاقاتهم الشّابة وإمكانياتهم العلميّة.

التّقاعد مشروع ومعمول به في كلّ بلاد الدّنيا، لكنّ المجتمعات المتقدّمة دأبت على الاستفادة من المتقاعدين المتميّزين في مجالات خيريّة وتطوّعية تكمل ما تعجز عنه الجهات الرّسمية، ليتحقّق التّكامل.

# عمّي ناصر

تقاعد منذ سنوات معدودة.. نعم تقاعد عن الوظيفة وغادر الورشة التّي عمل فيها قرابة الثّلاثين عاما بإحدى الشّركات الوطنيّة.. تقاعد من هناك لكنّه لم يتقاعد عن حياة النّشاط والسّعي الدّؤوب لتحقيق شيء جديد مفيد كلّ يوم.

استطاع عمّي ناصر، قبل سنوات، وبجهد فرديّ أن يحصل على قطعة أرض، واجتهد وثابر حتّى بنى عليها بيتا على قدر حالته، فآوى إليه هو وأسرته المكوّنة من سبعة أفراد.

المنطقة التّي سكنها عمّي ناصر ما زالت متخلّفة في مجال الخدمات، وحتّى الماء، الذّي لا يمكن الاستغناء عنه، لم يصل إلى الشّارع الذي يسكن فيه، وهكذا كان مضطرا إلى جلبه يوميّا من مكان يبعد عن بيته مئات الأمتار.. لم يمنعه شحّ الماء وصعوبة الحصول عليه من التّفكير بإيجابية فعمل على إشاعة الخضرة عندما أقام حول بيته حديقة غنّاء فيها الزّهور بأنواعها وحتّى شجيرات الخضروات الموسميّة.

حدثّني مرّة عن عمارة سكنها قبل أكثر من عشرين سنة فقال: كانت وسخة ولا يوجد في محيطها شجرة واحدة، وأغلب سكّانها موظّفون، مشغولون أو يدّعون ذلك... بدأ عمّي ناصر جهوده في إقناع جيرانه سكّان العمارة.. عامان كاملان مرّا بعد ذلك لتتحوّل العمارة إلى نموذج يحتذي به سكّان العمارات المجاورة.. أشجار وأزهار حول العمارة، نظافة مستمرّة عبر امرأة تعاون الجميع على دفع معونة شهريّة لها، التزام بالوقت المناسب لإخراج القمامة، وغير ذلك.

قلتُ لعمّي ناصر: كيف استطعت تحقيق كل ذلك..؟ قال: عبر الالتزام الشّخصيّ ثمّ النّصائح المستمرّة والمتابعة الفرديّة.

يمكن لكلّ واحد منّا أن يكون عمّي ناصر في حيّه.. عندما ينظّف أمام بيته، ويخضّر محيطه ويربّي أولاده ويكون قدوة لجيرانه، لتنتشر الإيجابيّة وينطلق قطار التّغيير.

يقول المهاتما غاندي: "كن أنت التّغيير الذّي تريد أن تراه في هذا العالم".

# وأنتم أيضا لو أردتم

نشأتْ بين أحضان أسرة فقيرة، وعندما بلغت سنّ الرّشد واطّلعت على بعض أسرار الحياة قرّرت أن لا تسلك الطّريق السّهلة التّي تهرب إليها أغلب الفتيات عندما يسلّمن بالضّعف ويقرّرن طواعية الوقوف في الظّل وانتظار الحظّ وحده لدحر العقبات وصنع المستقبل المشرق.

إنّها الشّابة آمال، عاشقة الآمال، التّي أدركت مبكرًا أنّها تملك مشروعا ناجحًا يتمثّل في نفض الغبار عن النّفس واستغلال نقاط القوّة والسّعي الدّؤوب والنّظر إلى الأمام دائما وتجاهل جميع الأصوات السّلبية الخانعة والمثبّطة والمستسلمة.

إنّها ابنة بيئة عادية محافظة بمدينة "جامعة" إحدى المدن العامرة بولاية الوادي.. نعم عادية لكنّها قرّرت أن لا تظلّ عادية إلى الأبد حين قرّرت مساعدة أسرتها وهي في سنّ العشرين عبر مشروع إبداعي بسيط.

مشروع صغير لا يعدو مجرّد اللّعب بالمقصّ عند أخريات، لكنّه منتج عند آمال حيث يحوّل قارورات البلاستيك المهملة عبر المقصّ والفرشاة إلى أزهار زاهية الألوان، يشتريها النّاس لتزيين بيوتهم وتحصل هي من خلالها على ما تساعد به أسرتها.

ولأنّ كلّ نجاح يدفع إلى نجاحات أخرى فقد شعرت آمال بقيمتها وقدرتها على الكسب ومساعدة أسرتها.. ذلك الشّعور الإيجابيّ تحوّل إلى سلوك عمليّ حين راحت تبحث عن فضاء أوسع لتدخل في ما يشبه الصّراع مع جهات رسميّة حتّى حصلت على قرض وأنشأت معمل خياطة تشغّل فيه ثماني عاملات.. ولم ينته الحلم فقد حصلت آمال على أرض جرداء وبدأت تخضّرها بالنّخيل وتأمل أن تكون مستثمرة سياحيّة بعد عشر سنوات.

هذا ملخّص حصّة بثّها التلفزيون الجزائريّ، وكانت النّهاية رائعة مع مذيع كان بارعا في إدارة الحوار ومتفاعلا ومؤمنا بمثل هذه المواهب والمبادرات الذّاتية.. ظهر عليه الصّدق والتأثّر وهو يختم اللّقاء بقوله: وأنتم أيضا تستطيعون لو أردتم.

# صيدليّات الرّحمة

مجموعة من الشّباب الإيجابيّ، في دولة عربيّة شقيقة، بادرت بتأسيس جمعية تعنى بجمع الكتب المدرسيّة القديمة من البيوت وإصلاحها وتصنيفها ومن ثمّ توزيعها على التّلاميذ المعوزين الذّين تعجز أسرهم عن توفير القدر الكافي من المصاريف المدرسيّة.

الفكرة بسيطة للغاية ويتمّ تنفيذها عبر شباب متطوّع يدقّ أبواب البيوت...

وبكلّ أدب واحترام يسأل الشّاب عن أيّ كتب قديمة متوفّرة ولم تعد مستعملة، فإذا كانت الإجابة بنعم، تلطّف وأعلم أهل البيت أنّه سيعود في الغد لاستلامها.

الفكرة سهلة وما أحوجنا إلى تطبيقها وتعميمها بشكل واسع لندرك النّتائج الكبيرة التّي تحقّقها على عدّة مستويات، فهي فكرة تختصر النّفقات على عدد كبير من الفقراء، كما توفّر جهودا في الطّباعة والتّوزيع، وتعمّق قيم التّعاون والإيجابيّة وخدمة الآخرين.

مادّة أخرى متوفّرة في البيوت على مدار العام وتنتظر من يفعّل أفكارا إيجابيّة لاستيعابها..

إنّه الدّواء وما أدراك ما الدواء الذّي تمتلئ به الثّلاجات والرّفوف خاصّة في فصل الشّتاء حيث تنتشر أمراض الزّكام والصّدر وما شابه ذلك.

يتناول مريض الدّواء ولا ينهيه، وآخر يبدّله بعد البدء فيه بيوم أو يومين، وثالث يفارق الحياة ويترك صندوقا من الأدوية.. وأكثر كميّات الدّواء المستعمل تؤول بعد فترة إلى صناديق القمامة، والمحصّلة ضياع مبالغ ضخمة ما أحوجنا إلى استغلالها بشكل أمثل.

لا شكّ أن هناك جمعيّات خيريّة في بلادنا قد بدأت العمل في جمع الأدوية المستعملة وفحصها وتصنيفها من قبل صيادلة متطوّعين، ومن ثمّ توزيعها على المرضى الفقراء.

لكنّ الفكرة في حاجة ماسّة إلى جهود أكبر لنصل إلى مرحلة ما يمكن تسميته بصيدليات الرّحمة على غرار مطاعم الرّحمة التّي صارت سنّة حميدة يتنافس الجزائريون على إحيائها خلال شهر رمضان المبارك.

# على منوال إبراهيم...

إبراهيم شابّ في حدود العشرين من عمره، لم تُكتب له رؤية والده فقد فارق الحياة وهو في بطن أمّه.. ترعرع على إيقاع معركة مفتوحة مع مصاعب الحياة وقسوة تكاليفها.. كبر وحاول أن يصمد في وجه التّسرّب المدرسيّ الذّي انتشر بين أقرانه لكنّه وجد نفسه خارج أسوار المؤسّسات التّعليميّة ومعه مستوى التّاسعة أساسيّ.

دخل الحياة العمليّة مبكّرا إذن وكادت أن تأخذه في متاهاتها كما تفعل بالكثيرين فتنسيهم معاني العلم والثّقافة ونعمة الكتاب.. ينسون تلك المعاني ويتصوّرون بديلا عنها في الأوراق النّقدية والمكاسب المادّية.

استيقظ بعد فترة وبدأ شغفه بالمطالعة وهيامه بها.. وبعد أن كان ينهل من معين الكتب الدّينية وحدها وسّع آفاقه نحو كتب الأدب العربيّ، ثمّ ما يقع تحت يديه من عيون الأدب والفكر العالميّ بشتّى مشاربه ومدارسه.

برع في كتابة القصّة القصيرة والخاطرة والمقال، وراح يسوّد دفاتره بما تجود به قريحته، ولم يتوقّف عند ذلك فبادر إلى تحدّي المحيط السّلبيّ الذّي يعيش بين ظهرانيه فلم يغلق بابه على نفسه وأدرك أنّه صاحب رسالة في قريته الغارقة في كثير من سفاسف الأمور.

قال لي مرّة إنّه جرّب طريقة تعليم الآخرين المطالعة بشكل عمليّ، حيث كان يجلس أمام بيته مفترشا الرّمل وفي يده كتاب يقرأه، فيمرّ الجار أو الصّديق ويسأل عن الكتاب ومضمونه، وتبدأ عمليّة ضخّ عدوى حبّ القراءة، ومن ثمّ يعيره كتابا أو أكثر.

واصل إبراهيم دراسته عن طريق المراسلة ويأمل أن يتخطّى امتحان الباكالوريا بتفوّق ويلج الجامعة من أوسع أبوابها..

ولم يكتف بذلك حيث راح يحرّض الشباب على معاودة الكَرّة والالتحاق بالدّراسة عن بعد.. وقد أقنع أكثر من عشرة..

فما أحوج شبابنا إلى أن يشمّروا عن ساعد الجد وينسجوا على منوال إبراهيم.

# رسائل عظيمة

داخل محلّ بيع ألعاب الأطفال تشاهد عددا كبيرا من النّماذج تملأ أرجاء المكان، وتقرأ أسماء من ثقافات عدّة وردت إلينا من وراء البحار، وأطفالنا، للأسف الشّديد، على دراية تامّة بها بسبب ذلك السّيل العرم من الفضائيات التّي تبث لنا ولأطفالنا كلّ شيء من أيّ شيء وحول أيّ شيء دون أن يكون هناك شيء كثير من الأشياء الجميلة التّي يزخر بها تراثنا وتكتظّ بها خزائن ثقافتنا.

قبل أن تشتري لعبة ألحّ ابنك عليها.. ماذا لو داعبت بائع الألعاب..؟ قل له مثلا هل هناك لعبة فلان أو علاّن، وتذكر أمامه بطلا وطنيا أو عربيا.. جملة بسيطة، ثمّ تشتري لعبة ابنك المفضّلة وتغادر بسلام.

يحدث أن تشتري شيئا من دكّان أو تتناول طعاما في مطعم لم تكن ترتاده من قبل.. ويظلّ في رقبتك دين بسيط جدا.. صاحب المحل أو المطعم قد تغاضى عن ذلك، أو قال لك من البداية إذا لم تعد فلا تثريب عليك.. ولكنّك تتذكّر الموقف بعد أسبوع وحتّى بعد شهر وتأتيك الفرصة المواتية لتزور ذلك المطعم أو الدّكّان، وتقابل الرّجل بابتسامة ودّية وتذكّره بالأمر وتدفع ذلك الدّين البسيط، وتغادر.

قد تحتاج إلى بيع سيّارتك وتعليق إعلان بذلك على الزّجاج الخلفيّ.. وقد تعوّد النّاس على الكتابة باللّغة الفرنسيّة إلا القليل النّادر.. ماذا لو كتبت الإعلان بالعربيّة .. للبيع، ولا بأس أن تكتب تحتها بالفرنسيّة.. أمر بسيط وغير مكلّف.

مواقف قد تبدو بسيطة لكنّها حملت رسائل عظيمة.. في الأولى ذكّرتَ بالتّراث والصّمود في وجه العولمة الثّقافية المتوحّشة.

وفي الثّانية تركت رسالة لصاحب الدّكان أو المطعم أنّ الدنيا ما زالت بخير عكس المعلّقات والدّواوين التّي نسمعها يوميا عن فساد الدّنيا وزوال الخير..!

وفي الثّالثة أعلنت بقوّة أنّ العربيّة هي الأولى رغم أنف المنهزمين ثقافيا.

# في الرّياضة
# والفـنّ

# كرة القدم وبرامج الآخرين

العقل السّليم في الجسم السّليم.. جملة مفيدة جدا حفظناها في بدايات تعليمنا الابتدائيّ، ودأب المعلّمون الطّيّبون على ترديدها في كلّ مناسبة حرصًا منهم على ترسيخ خلق وطبع الرّياضة في ذاكرة النّاشئة، ومن ثمّ الوصول إلى عقول سليمة مفكّرة مبدعة تحسن تمثيل ذلك الجسم القويّ وتلك القامة المديدة.

ما وصلنا إليه في سنواتنا هذه، وبعد انتشار الفضائيّات بهذا الشّكل الجنونيّ، أبْعَدَنا عن تلك الحكمة، وأوقعنا في شباك غيرنا وبرامجه ومخطّطاته..

عَلِمَ البعض ذلك وجَهِلَه آخرون، لكنّهم تساووا في المحصّلة كما قال الشّاعر:

فإن كنتَ لا تدري فتلك مصيبة  وإن كنتَ تدري فالمصيبة أعظم

كرة القدم مثلا لعبةٌ شعبيةٌ يعشقها الملايين، بل مئات الملايين، في شتّى أنحاء العالم، وممارسة هذه اللّعبة رياضة شيّقة ومفيدة، لكنّ ما آلت إليه في زمن العولمة و"البزنس" صار يدعو كلّ عاقل إلى وقفة مراجعة مع النّفس.

اللاّعبون المتألّقون في النّوادي الأوروبية مثلا يضعون خططًا وأهدافًا واضحة لتحصيل المبلغ الفلاني خلال مدّة محدّدة، والنّوادي ذائعة الصّيت تضع أهدافًا واضحة لتحقيق أرباح معيّنة خلال الموسم الفلانيّ أو الدّوريّ العِلاّنيّ، والشّركات الكبيرة تضع برامج وخططا لتحقيق نسبة مبيعات عالية عبر الإشهار والدّعاية في الملاعب وعلى شاشات الفضائيات التّي تنقل مباريات هذا الدوريّ الشّهير أو ذاك، وكلّ قناة من هذه القنوات المشفّرة تضع لنفسها برنامجا واضحا وسقفا من الأرباح تسعى لتحقيقه، قد يصل إلى مئات الملايين من الدّولارات. لكنّ جهد الجميع، وبرامجهم والمبالغ الضّخمة التّي يحلمون بها ويخطّطون لوضعها في حساباتهم؛ مرهون بالمشاهد العاديّ الذّي يسارع إلى شراء البطاقة الذّكية ليتابع المباريات عبر القنوات المشفّرة..!

أولئك جميعا لهم برامج وخطط، أمّا من يشتري البطاقة فقد دخل ضمن خطط وبرامج الآخرين.. فَضَعْ برنامجا لنفسك حتى لا تكون ضمن برامج الآخرين.

# المثل الأعلى

مع أنّ ناقل الرّداءة ليس رديئا بالضّرورة، لكنّني سَأَرْبَأ بنفسي عن نقل التّفاصيل الرّديئة والموجعة والمؤذية لمشاعر الجزائريّين الشّرفاء خلال تلك الأحداث التّي وقعت أثناء ندوة صحفيّة عقدها فنّان مصريّ في فندق الشّيراتون بالعاصمة، كما جاء في إحدى جرائدنا اليوميّة.

لقد تحوّلت تلك النّدوة إلى مهرجان نواح وبكاء كانت أدوار البطولة فيه لعدد من الشّابات "المراهقات" اللّواتي حَضَرنَ النّدوة الصّحفيّة التّي يُفترض أنّها خاصّة بممثّلي وسائل الإعلام.

المشهد طويل وحزين لكن أخطر ما آلمني فيه هو إجابة إحدى المراهقات على سؤال صحفية لها عن سرّ هذا الجنون..؟ قالت: "نحبّه كثيرا وهو مثلنا الأعلى، لسنا مجنونات"..!

ماذا دهانا وأي هوّة وصلنا إليها عندما يفقد الجيل الصّاعد مثله الأعلى ويتوه بين "الأمثال العليا الوهميّة" الوطنيّة منها أو العربيّة أو الأجنبيّة على حدّ سواء.

إنّ المصيبة عظيمة، وعلى النّخب الواعيّة التّوجّه بعزم وحزم والنّظر إلى مسار سفينة المجتمع، وعلى النّخب الحاكمة أن تدرك بكامل وعيها أنّ قلاعنا مهدّدة من الدّاخل بسبب استمرار داء "الهشاشة الأخلاقية" الذّي توغّل داخل النّسيج الاجتماعيّ.

كثيرون هم الذّين يضربون الأخماس في الأسداس ويُحَوْقِلُون كلّما تبيّن لهم أنّ مستوياتنا الأخلاقيّة قد انحدرت أكثر في عالم الرّداءة، ولا شكّ أنّ البكاء على أوضاعنا وسكب الدّموع على أحوال شبابنا وشابّاتنا مطلوب وهو بداية الإحساس بالمشكلة.

لكنّ الخطوة التّالية والإجراء العمليّ هو التّشمير الكامل عن ساعد الجدّ وشحذ العزائم والهمم ليبدأ كلٌّ من موقع مسؤوليته، مهما كانت محدودة، في نشر الفضيلة ومساعدة مَن حوله من الشّباب والمراهقين على الوصول إلى المثل الأعلى الحقيقيّ وليس المزيّف.

المثل الأعلى المُنْتِج وليس المهرّج.. المثل الأعلى المبدع وليس المقلّد.. المثل الأعلى الإيجابيّ وليس السّلبيّ.

# بين ماجدة والمهمّشين

خلال حصّة تلفزيونيّة في قناة عربيّة صدمت المغنّية ماجدة الرّومي محبّيها في الجزائر، أولئك الذّين تابعوا الحصّة وكانوا أكثر المتّصلين هاتفيا، لأنّها، حسب الجريدة الوطنيّة التّي أوردت الخبر، قد ذكرت كلّ الدّول العربيّة بخير بل بـ "هيام هستيري"، وعندما يصل الحديث إلى الجزائر تتجاهلها بشكل أو بآخر.

الجزائر حسب الجريدة صرفت على ماجدة الرّومي، خلال زياراتها السّابقة، مبالغ طائلة منها أربعة عشر مليار سنتيم مرّة واحدة على شكل هدايا فاخرة لها ولفرقتها ومرافقيها، ولم يقلّ أجرها، حسب الجريدة أيضا، في كلّ مرّة عن مليار سنتيم.

الصّحيفة ذكرت أيضا أنواعًا أخرى من التّكريم وصلت إلى أحجام كبيرة خاصّة في نوعيّة الاستقبال..!

والنّتيجة أنّ الذّين استقبلوها وكرّموها، لم يحصدوا سوى الزّوابع، مع أنّهم لم يزرعوا الرّيح، ولم ينثروا في طريق تلك الماجدة سوى الورد بل أغلى من ذلك وهي أموال بلادنا وعائدات ثروات أرضنا.

يستطيع كلّ أحد أن يحبّ وأن يعجب بمن أراد ومتى أراد وأين أراد وبأيّ شكل أراد، وأن يعبّر عن ذلك متى شاء وبالمبالغ التّي يراها مناسبة، لكن بشرط واحد: أن يدفع ذلك من مال أبيه وجدّه، وليس من مال الشّعب والأمّة وعائدات البترول وعَرَق الطّبقة الكادحة والفئات العاملة.

إنّ في بلادنا من الفنّانين والشّعراء والباحثين والكتّاب والمبدعين من هم في حاجة إلى رعاية وعناية من الجهات الوصيّة على الثّقافة، و ما أُنفق على تلك "الماجدة" في العلن يكفي لتحريك قاطرات عدد كبير من فنّانينا "المهمّشين" والدّفع بهم قدما نحو إبداع أكبر وآفاق أرحب وإنتاج أغزر وأروع..

ما صُرف عليها في العلن وتداولته الصّحافة.. أما ما خفي فالله وحده أعلم به..؟!

# أكبر من مجرّد فتوى

المسلسلات المدبلجة عادت إلى الواجهة من جديد لتُسيل حبرا كثيرا وتستهلك أموالا وأوقاتا.. عادت هذه المرّة على شكل مسلسلات تركيّة بلهجة شاميّة تعوّد عليها مجتمعنا من خلال الدّراما السّورية التّي راحت تنافس أختها المصريّة خلال السّنوات الماضية وتتقدّم عليها في عدد من المواقع.

ولأنّ في الشرّ ما تختار فإنّ هذه المسلسلات التركيّة مهما بدت شبيهة في الحبكة القصصيّة والتّفاصيل والنّهاية السّعيدة بالمسلسلات المكسيكيّة؛ فإنّها في النّهاية ذات صلة بمجتمع شقيق، رغم أنّ ثقافة الغرب والعولمة والاستهلاك هي الطّاغية عليه الآن بشكل أو بآخر.

ومع ذلك لو نظرنا في أولوياتنا وحاولنا أن نعيش حياة أكثر جدية وأقرب إلى واقعنا وانشغالاتنا العامّة والخاصّة؛ فإنّ شبابنا وشابّاتنا لن يجدوا وقتا ليبعثروه على هذه المسلسلات التركيّة مهما بدت مُحْكَمَةً في أداء أبطالها أو قويّة في حبكتها القصصيّة وطريقتها المثيرة في شدّ المشاهد إليها.

الطامّة الجديدة التّي تصاحب المسلسلات التّركيّة المدبلجة هي حجم التّهافت والجشع الماديّ الذّي ظهرت به جهات البثّ، حيث عشرات الإعلانات المصاحبة لتلك الحلقات الطّويلة، بل وصل الجشع والإغراء حدّه عندما بدأ الإعلان عن خدمات تُقدّم عبر الهاتف "للمشاهدين الأعزّاء" تمكّنهم من مشاهدة الحلقات القادمة قبل بثّها، والخدمة ليست بالمجان بطبيعة الحال.

الأمر وصل إلى جهات الفتوى وصدرت تحذيراتٌ بل فتاوى بتحريم متابعة هذه المسلسلات لخطورتها على أخلاق الشّباب.. لكنّ الخَطْبَ أعظم وعلاجه أكبر من فتوى لا يتابعها إلا القليل ولا يعمل بها إلا أقلّ القليل من ملايين المتابعين للمسلسلات المدبلجة.

إنّ الأمر في حاجة إلى بحث عميق وجادّ عن السّبب الذّي أوصلنا إلى هذا الفراغ الرّهيب، وجَعَلَ شبابنا يسلّمون أوقاتهم وعقولهم لمثل هذه المسلسلات.

# القضيّة رقم واحد..!

حول كرة القدم جاء في الموسوعة العربيّة العالميّة ما يلي: "يعتقد المؤرّخون أنّ الصّينيين مارسوا لعبةً تضمّنت رَكْلَ كرة بالأقدام منذ ألفي عام.. ويقال إنّ الرّومانيين القدماء كانوا يشجّعون نوعًا من كرة القدم كجزء من التّدريب العسكريّ.. ومن المحتمل أن تكون هذه اللّعبة أُدْخلت إلى الجزر البريطانيّة إمّا بوساطة الرّومان أو في وقت متأخّر بوساطة النّورمنديين.. هناك مسرحية تاريخيّة عن مباراة لكرة القدم أقيمت بالقرب من لندن في يوم ثلاثاء المرافع عند النصارى عام 1175م.. وقد أصبحت المباريات التّي تقام في ثلاثاء المرافع مشهورة بأنّها كرة قدم الغوغاء، حيث كان مئات الشّباب يجرون وراء إحدى الكرات مخترقين الشّوارع بهمجيّة وعشوائيّة.. وقد أدّى هذا إلى قيام إدوارد الثّاني بإصدار قرار بتحريم لعبة كرة القدم عام 1314م.. أظهر الملوك فيما بعد استياءهم تجاه هذه اللّعبة لأنّها كانت تعرقل التّدريب على الرّماية بالسّهام.. إلا أنّ كرة القدم ظلّت باقيةً وأصبح لها شعبيتها في جميع أنحاء إنجلترا بحلول أوائل القرن التّاسع عشر الميلاديّ".

تحدّثت الموسوعة العربيّة العالميّة بعد ذلك عن وضع قواعد كرة القدم وتطوّر بضع أنواع منها وبدء ظهور الأندية والمسابقات في بريطانيا، إلى أن وصلت إلى مرحلة "العالميّة" بتأسيس الفيفا عام 1904.

كرة القدم بدأت شعبيةّ إذن، وظلّت شعبيّة رغم الفيفا والاتحاديات الوطنيّة والإقليميّة والقاريّة والدّوليّة.. وظلّت شعوب كثيرة، وما زالت، تتقارب عبر مباريات كرة القدم رغم حجم المال والأعمال الذّي اقترن بهذه اللّعبة خلال العقود الأخيرة بعد "تغوّل" سلطة الدّعاية والإعلان.

ومع كلّ ما سبق يمكن استساغة الكثير مما يحدث في ميادين كرة القدم وطنيّا وعربيّا ودوليّا.. لكنّ ما تمجّه العقول السّليمة هو محاولات تحويل مباراة كرة قدم إلى معركة بين شعبين شقيقين، بعد وضعها في مقام القضيّة رقم واحد في كلّ من مصر والجزائر..!

# هل يعطينا أحدٌ فرصة أخرى..؟

سلسلة عمليّات تعبئة الشّعب الجزائريّ، ودفعه وراء الفريق الوطنيّ خلال مشواره الأخير إلى مونديال جنوب أفريقيا، كانت ناجحة، ويبدو أنّ التّخطيط للوصول إلى هذا الهدف كان دقيقا إلى حدّ كبير، بل إنّ تقنية الخطط البديلة كانت جاهزة عندما تصرّفت الجهات المسؤولة بسرعة وتعاملت مع عمليّات نقل الجمهور الجزائريّ إلى الخرطوم، بأعداد كبيرة وفي وقت قياسي..!

كما أنّ التّنسيق والتّعاون خلال هذه العمليّات كان قويا بين مختلف القطاعات.. إنّه "نجاح" نتمنّى أن ينتقل إلى قطاعات وهموم أخرى تشغل بال المواطن الجزائريّ وتؤثّر على حاضره ومستقبله.

تأهّل فريقنا الوطنيّ بعد أن بذل الشّيخ رابح سعدان وأشباله ما بوسعهم للوصول إلى تحقيق حلم "أغلب الجزائريين" في الوصول إلى مونديال جنوب أفريقيا 2010 بعد غياب طويل وأمراض كادت أن تكون مزمنة أصابت الرّياضة الجزائريّة.

إنّه مثال رائع للنّهوض القويّ بعد السّقوط الحرّ، و من خلاله عادت إلينا بعض الثّقة في إمكانية الانبعاث بعد سنوات طويلة تراكمت فيها الإخفاقات حتى اعتقد الكثير من الجزائريين أنّ التّخلّف والفشل والفساد الإداريّ والسّياسيّ قدرٌ مقدور على الجزائر وشعبها.

نعم وصلنا إلى المونديال.. لكنّ الكرة انتقلت إلى شباكنا مباشرة بعد أن انقشع غبار الأفراح وصمتت مزامير السّيارات وعادت الحياة إلى طبيعتها.. صار لزاما على كلّ جزائريّ أن يسأل نفسه بصراحة ومرارة: ماذا قدّمتُ لبلادي..؟

هل نقوم فعلا بالواجبات المنوطة بنا لنكون مواطنين صالحين وجديرين بدفع عجلة البلاد نحو التّقدم والازدهار والحكم الراشد..؟

إنّ الأماني وحدها بضاعة الضّعفاء والعمل الجادّ هو بضاعة الأقوياء، وإذا لم نغتنم فرصة الثّقة والتّكاتف التّي نعيشها هذه الأيّام، فهل نطمع أن يعطينا أحدٌ فرصة أخرى..؟

# الكرة المخطوفة

رياضةُ الفقراء وصفٌ يتكرّر هذه الأيّام في تقارير وسائل الإعلام حول حقوق بثّ مباريات كأس العالم والإشكاليات القائمة والاتّهام بالاحتكار الظّالم الذّي تمارسه هذه الجهة الإعلامية أو تلك.

وحجّة أصحاب التّقارير أنّ كرة القدم هي الرّياضة الأكثر شعبية في العالم، أو معشوقة الجماهير كما يحلو للبعض أن يسمّيها، وبالتّالي لا يجوز بحال من الأحوال أن تتحوّل إلى تجارة رابحة يتحكّم فيها أرباب الأموال في الشّرق والغرب ويحرموا منها مئات الملايين من أبناء الطّبقات الفقيرة التّي لا تمتلك قوت أسبوع واحد، فضلا عن ثمن بطاقة ذكية يكفي لإعالة أسرة لمدة شهر كامل في كثير من دول الفقر والمجاعات.

إن الدّعايات التّلفزيونيّة المحمومة تتحدّث هذه الأيام عن أربعة مليارات مشاهد سيتابعون مباريات كأس العالم، وهو رقم كبير جدًا عندما نقارنه بعدد سكّان العالم، وبعد أن نضع في حسابنا إحصائيات أخرى تتحدّث عن مئات الملايين من الجَوْعَى ومثلهم من المشرّدين وضعفهم ممن يعانون ويلات الحروب ومخلّفات الكوارث الطّبيعية.. عندها يمكن التّساؤل عن صحّة ذلك الرّقم المخيف، وإن كان مجرّد تهويل ليقول لنا: وأنتم أيضا اشتروا بطاقاتنا الذّكيّة.

ومع استنكار العقلاء في كلّ مكان لهذا التّهريج يظلّ مستساغا مع بعض التّحفّظ، لأنّ البشريّة عرفت منذ القدم ظاهرة الجشع والانتهازيّة والتّلاعب بالمسمّيات والعزف على أوتار معيّنة لتحقيق المزيد من الأرباح واكتناز الذّهب والفضّة..! لكنّ غير المستساغ أن تتبرّم حكومات عربيّة من غلاء الثّمن وحدّة المفاوضات مع الجهات المحتكرة لمباريات كأس العالم.. تتبرّم من ذلك وتخاف من ضغط مواطنيها وغضبهم وهي التّي عملت بكلّ الجهود على جعل كرة القدم أولويّة الأولويات وأمّ القضايا بالنّسبة لهم..

أيّها السّادة: رتّبوا أولويات شعوبكم من جديد، وقاطعوا سماسرة الكرة المخطوفة حتى تعود إلى براءتها الأولى.

# في الأماكن العامّة
# وحقوق الآخر

# دعونا ننعم بالهدوء

كان مكتبًا متنقّلا بأتمّ معنى الكلمة، فقد اتّصل الرّجل بمدينة وهران وتحادث باحترام شديد مع مدير شركة كبرى حسب ما بدا من حديثه، ثمّ تحادث مع فتاة وطلب منها فتح ملفّ وإخراج فاتورة وصفها لها، ولما عجزت أمرها بحدّة أن تنادي على "فلانة" وبدأ معها سلسلة من الإرشادات حتى اهتدت أخيرا إلى مكان الفاتورة المطلوبة، وتحدّث بعد ذلك مع آخر ليرسل له أوراقا عبر الفاكس، ثمّ تحدّث مع صديق أو زميل ليخبره أنّه الآن في المكان الفلانيّ وأنّه سيسترجع نماذج من الشّركة الفلانيّة.

كلّ ما سبق كان في حافلة عامّة، والمتحدّث رجل محترم كان يجلس إلى جانبي، الأمر الذّي استفزّ صاحب المقعد المجاور لنا فعبّر عن استيائه من هذا المكتب المتنقّل..! خاصّة أنّ صاحبنا قد تكلّم، قبل محادثات العمل، مع زوجته.

موقفٌ مشابهٌ في مؤسّسة عموميّة ونحن ننتظر دورنا، حيث أخرجت سيّدة متوسّطة العمر هاتفها النّقّال وبدأت تتحدّث: ألم تعرفني يا فلان..؟ أنا فلانة الموظّفة في السّفارة الفلانيّة... هل نسيت..؟ ذلك اليوم لم أعاود الاتّصال بك لأنّ الهاتف سُرق منّي بعد أن تحدّثتُ معك.. متى يصل فلان من فرنسا.؟. ملفّ السّفارة جاهز.. أبحث لي عن شخص للتّوزيع..!

إنّ تكنولوجيا الهاتف النّقّال نعمة ينبغي أن نشكر الله عليها، لكن البعض يصرّ أن يجعل منها مصدر قلق دائم لغيره من عباد الله.. والمطلوب بإلحاح أن نضبط أنفسنا إلى أقصى حدّ، ونحدّد بدقّة المهمّ من التّافه، والمكالمات الضّروريّة من سَقْط الكلام، ونحترم الآخرين ولا نضطرّهم دائما لسماع أحاديثنا "الجادّة"، فضلا عن السّخيفة.

أعجبتني عبارة كتبها صاحب دار نشر في مكتبه تقول: حتّى نستفيد من اللّقاء أغلق الهاتف الجوّال من فضلك.. نعم إنّنا في حاجة ماسّة إلى غلق هواتفنا في أماكن ومواقف كثيرة حتّى نريح ونستريح، وننعم ببعض الهدوء الذّي كنّا نعيشه قبل عصر الجوّالات.

# أفراح تسرق أحلام الآخرين

ضجيج وأبواق سيّارات وشارع مغلق لعدّة أيّام وشباب يتجمّع من كلّ حدب وصوب ليتمايل على وقع موسيقى وأغاني نشاز في أغلبها.. ماذا هناك..؟ إنّه عرس فلان ابن فلان.. مبارك عليكم يا سادة، وبالرّفاه والبنين، والعاقبة للأولاد، وللزّوجة الثّانية أيضا لمن يرغب في التعدّد والإكثار من النّسل.

لكن هل تَعُون حقيقة ما تفعلون..؟ وهل تعني الفرحة أن نسيء للآخرين ونسوّد حياتهم خلال يومين أو ثلاثة ونتفنّن في صنع الفوضى المروريّة وإيذاء مستعملي الطّرقات وتعطيلهم عن مصالحهم..؟

قد تبدو الأمور بسيطة إلى درجة أنّ بعض العقلاء عندما تحدّثهم عن هذه الظواهر السّلبية يعتذر لغيره بأنّ الأمر لا يتعدّى اليومين وتعود مياه الحيّ إلى مجاريها.. لكنّ النّظر عبر زوايا أخرى ومن مواقع المتضرّرين يجعلُ الأمرَ جدًا لا هزلاً، فتلك التّصرّفات قد تصل إلى حدّ سرقة أحلام الآخرين وتحطيم مستقبلهم باسم الحقّ في الفرحة.

ما ذنب ذلك الطّالب، أو تلك الطّالبة، في أيام الباكالوريا مثلا وما قبلها بقليل..؟ ما الذّي اقترفوه ليُحرموا من النّوم أو المذاكرة الهادئة خاصّة ليلة الامتحان..؟ وبالتّالي التّوجّه إلى قاعة الامتحان برفقة الإرهاق والتّعب لينعكس على الأداء والتّركيز.. قد يجد الشّاب فسحة فيهرب من جوّ الصّخب إلى صديق أو قريب، أمّا الشّابة فأنّى لها أن تخرج ليلا..؟ إنّ إعلان الزّفاف مطلوب شرعا وعقلا وعرفا ومنطقا، لكن في حدود تلك القاعدة الذّهبية التّي تقول: تنتهي حريّتك عندما تبدأ حريّة الآخرين.

في المدن الكبيرة اختفت هذه الظّاهرة تقريبا عندما توفّرت قاعات الحفلات وشدّدت الجهات الرّسميّة الرّقابة على المخالفين.

وتظلّ الحاجة ماسّة في القرى والأرياف إلى تعاون إيجابيّ جادّ بين جميع الحكماء لنشر سلوكيّات حضاريّة تجمع بين الحفاظ على تقاليد الأعراس الشّعبيّة ومراعاة الآخرين واحترام حريّاتهم الشّخصيّة.

# خطر على صحّة المجتمع

لا يمكن للنّادل أو الجرسون خدمة الزّبائن إذا اختاروا الجلوس في الأماكن المخصّصة للمدخّنين.. ممنوعٌ من خدمتهم بنصّ القانون الهولنديّ الجديد، وعوضًا عن ذلك لجأ أصحاب المطاعم والمقاهي إلى وضع آلات توفّر للزّبائن المدخّنين وجبات خفيفة ومشروبات.

هولندا إذن بدأت تطبيق قانون منع التّدخين في الأماكن العامّة، وبدأت سلطة الأغذيّة وسلامة المنتجات الاستهلاكيّة مراقبة المقاهي والمطاعم وما شابهها، حيث يواجه المخالف لتعليمات القانون الجديد غرامة مالية تصل إلى ألفين وأربعمائة يورو.

دول أوروبيّة سنّت قوانين صارمة تمنع التّدخين في الأماكن العامّة، جاء ذلك بعد أن دقّ العقلاء ناقوس الخطر وأدركوا أنّ الأمر جدّ وليس هزلا؛ فمجموعات من المغامرين بالصّحة والعافية يريدون سَقْيَ الجميع من الكأس نفسها عبر التّدخين السّلبيّ الأكثر ضررا من التّدخين المباشر.

الصّين العظمى أيضا بدأت إجراءات حظر التّدخين في معظم المباني العامّة بالعاصمة بيجين، وجنّدت لهذا الأمر مئة ألف فرد لضمان سريان الحظر، حيث ينتشر التّدخين بشكل كبير جدا ويتعاطاه ربع السّكان تقريبا.

وللعلم فإنّ صناعة السّجائر هناك من الصّناعات الرّئيسيّة ممّا يجعل العديد من المسؤولين يبتعدون عن المساس بها، لكنّ بعضهم بدأ يستوعب الحقيقة وهي أنّ أيّ خسائر ماديّة آنيّة للاقتصاد بعد إيقاف زراعة وتصنيع التّبغ سوف يتمّ توفيرها مستقبلا حين تتضاءل فاتورة النّفقات الصّحيّة الباهظة.

وفي انتظار صدور قوانين صارمة في بلادنا تمنع التّدخين؛ علينا أن نحافظ على حقوقنا في استنشاق هواء نظيف لطيف، ونصدع في وجه كلّ مدخّن في مكان عام:

آسف مقدّما، لكن توقّف عن التدخين لأنّك خطر على صحّة المجتمع..

# مقاهي بلا دخان وشيشة

أجد نفسي منساقا من حين إلى آخر نحو إحدى المقاهي.. أتناول كأسا من الشّاي الأخضر، واستمع إلى أحاديث المقاهي وعالمها الخاصّ، فهي مرايا شفّافة تعكس قسما مهما من تفكير المجتمع ومستواه وردود أفعاله على ما يقع في البلاد والعالم كلّه.

لا أستطيع المكوث في المقهى لأنّني أتضايق من دخان السّجائر.. ولو كنتُ في مكان آخر لطلبتُ من المدخّن أن يتوقّف عن ذلك، لكنّني أعترف بأنّني لم أتجرّأ بعد على فعل ذلك في المقاهي لأنّ التّقليد السّائد والقناعة الرّاسخة لدى أغلب النّاس أنّ المقهى للقهوة والشّاي والسّجائر والأصوات العالية والقهقهات.

كنتُ أحلم بمقاهي دون دخان ولا شيشة حتّى استمعتُ إلى تقرير بثّته القناة الإذاعية الأولى حول تجربة فريدة لمقهى يمنع صاحبه التّدخين..

المقهى في مدينة باتنة، تلك المدينة النّظيفة الهادئة التّي تنام في أحضان جبل الأوراس الأشمّ.

صاحب المقهى يشترط على روّاد مقهاه عدم التّدخين، ولنا أن نتصوّر حجم التّعب الذّي عاناه خاصّة في البداية ومقدار الخسارة الماديّة، لكنّ الرّجل أصرّ على قناعاته وواصل حتىّ صار عمر المقهى الآن ثلاث سنوات، وهي مدّة كافية، كما يتحدّث بعض منظّري الإدارة، للتّدليل على نجاح المشروع وثباته على الطّريق.

ولا شكّ أنّ هناك تجارب ناجحة في هذا المجال عبر مختلف جهات الوطن؛ لكنّ المطلوب رسميا وشعبيا هو بذل المزيد من الجهود الهادئة الهادفة لمحاصرة التّدخين في كلّ مكان وزمان، ولنا في تركيا، تلك الدّولة التّي يفترض أنّها منّا ومثلنا، خير قدرة ومثال..

فها هي تقطع أشواطا على طريق الصّحة العامّة وحماية البيئة حين منعت مؤخرا التّدخين في المقاهي والمطاعم والمرافق المشابهة، بعد أن منعته قبل ذلك في الأماكن العامّة.

# صورة تذكاريّة من فضلك

كنتُ مشغول البال وأنا في بهو الانتظار بمستشفى الولادة.. وطبيعيّ أن انشغل فزوجتي قد أُدخلت مباشرة إلى قسم الحالات الخاصّة، وكانت أوضاعي النّفسيّة تتراوح بين القلق على زوجتي والمولود المنتظر، والاستبشار بقرب الخبر السّارّ الذّي ستعلنه القابلة.

ومع ذلك جاء ما يخرجني من ذلك الجوّ ويحوّل وجهة تفكيري.. فما هو يا ترى..؟

إنّه ببساطة شديدة كائن حيّ يرتدي ملابس أهل الطّبّ والتّمريض.. كان في طريقه إلى قسم الأطفال المقابل لقسم الولادة.. كان ذلك الكائن يحثّ الخطى مرفوع الرّأس، ولا يبدو عليه أيّ اضطراب أو خجل من نفسه.. نعم لا يبدو عليه ذلك مع أنّه يدخل قسم الأطفال وهو يدخّن سيجارته بشراهة..!

تابعته وهو يدخل ذلك القسم والسّيجارة في يده، ومع انشغالي بأمر زوجتي فقد انتابتني رغبة شديدة في ملاحقة الرّجل ومراقبته عن قرب والتفرّس في تعابير وجه هذا "الكائن الطّبيّ".. وبعد أن أتفحّصه جيدا وأشبع ناظري من "طلعته البهيّة" و"سيجارته الزّكية"..... بعد ذلك أتبسّط معه في الحديث واعتذر له عن أيّ ضياع لوقته الغالي بسبب هذا "الفضول" الذّي بدا من خلال تصرّفاتي.

بعد مراسيم الاعتذار تلك أطلب منه بلطف شديد، فهو "مرهف الحسّ" لأنّه مرسل في مهمّة إلى قسم الأطفال.... أطلب منه التقاط صورة تذكاريّة معه..!

وعندما يسألني عن سبب ذلك وإن كان قد صار مثل نجوم الفنّ والسّياسة والرّياضة وهو لا يدرك..؟

أجيبه بحزن وأسى وأسف: عذرا فلستَ نجمًا.. لكنّك من بين قلائل في هذا العالم الفسيح ما زالوا يمارسون هذا النّوع من التّخلّف السّخيف..!

إنّ الأغلبيّة السّاحقة من أمثالك قد انقرضت..!

ولأنّك إلى زوال مثلهم فسأحتفظ بصورة تذكاريّة لك.

# الرّاحة في الإيجابيّة

دخلتُ مرة مركزا للبريد وكان ضيّقا محدود التّهويّة ورحتُ أنتظر دوري وبعد لحظات بدأت أشمّ رائحة السّجائر المحترقة، قلتُ في نفسي: من يتجرّأ على التّدخين في هذا المكان..؟

نظرتُ يمينا ويسارا فلم ألحظ الأمر بين المراجعين.. وجلتُ ببصري بين موظّفي البريد فإذا بأحدهم يدخّن بهدوء وشراهة ويتفنّن في توزيع الدّخان في الهواء..!

تردّدت بعض الوقت ثمّ شعرت بضرورة التّحرك الإيجابيّ.. اقتربتُ حتى لامست الجدار الفاصل، ونظرتُ إلى المدخّن عدّة مرّات لكنّه لم يستوعب، فأشرتُ إليه دون صوت ولمّحتُ إلى السّيجارة، فلم يتغيّر في الأمر شيء، فتحدّثتُ إليه بصوت خافت، وقلت: السّيجارة تؤذيني، فقال ببساطة: وأنا أيضا تؤذيني..! فقلتُ وما علاقتي بالأمر؟ من حقّي أن أتنفّس هواءا نقيًا وأنا في هذا المرفق العام.

رفض الرّجل طلبي فرفعتُ صوتي منذّدا بالأمر ثمّ صرخت: أين رئيس المصلحة..؟ ورأيت ممرا على يسار الرّواق فدخلته لأجد بابا مغلقا، ولمّا خرجت وجدت مسؤول المصلحة يناديني بلطف.

اعتذر الرّجل بأدب جمّ قائلا: إنّ الشّخص المدخّن ليس من موظفي إدارته فهو تقنيّ حضر من المقرّ الرّئيسيّ لإصلاح عطل في الشّبكة، وهو سيّء الأخلاق ويتعامل مع الجميع بغطرسة، ولو اعترضنا عليه فلن يتورّع عن التّأخر في أداء عمله مما يلحق الضّرر بالمراجعين.

اعتذرتُ للمسؤول عن رفع صوتي، مع أنّ رفع الصّوت في مثل هذه الحالات هو الأصوب، في رأيي، لِمَا فيه من تنبيه للغافلين وتشجيع للمتردّدين على المطالبة بأبسط حقّ من حقوق الحياة وهو استنشاق هواء نقيّ في مكان عامّ.

اختفى الشّخص المدخّن وخرجتُ من مركز البريد وأنا أحسّ بقدر كبير من الرّاحة والهدوء الدّاخليّ، وتذكّرت مواقف سابقة كنتُ أحجم فيها عن المطالبة بحقّي فأخرج حزينا منكسر النّفس.

# في الاقتصاد
# والعمل

# حافظ على قشّابيتك

قال البنّاء بعد أن أشار إلى أحد عمّاله: هل ترى ذلك الذّي يحفر الأساس، إنّه خيّاط ماهر لكنّه اضطرّ لغلق دكّانه والالتحاق بنا..! وأضاف: الخياطة لم تعد بتلك المكانة السّابقة بعد أن صار ما يأتينا من الخارج أسهل تناولا وأرخص أسعارا.

وقال لي صديق يجمع بين الطّبّ والأدب: لقد تغيّرت كثير من الموازين.. تقول لبعض النّاس هذا طبيب، فلا يلتفتون إليه مع أنّه سلخ من عمره سبع سنوات في دراسة الطّب بكلّ تعقيداته..! وتقول أمامهم: هذا "أمبرتاتير" (مستورد) فتشرئبّ الأعناق وتُحبس الأنفاس..!

خلق الله النّاس شعوبًا وقبائل ليتعارفوا، وبديهيّ أن يقود هذا التّعارف إلى التّبادل التّجاريّ والثّقافيّ، لكن أن يتحوّل شعبٌ ما إلى مجرّد مُستقبِل لثقافات الآخرين وسلعهم ومشغّل لمؤسّساتهم ومصانعهم.. فذلك أمر تأباه النّفوس الأبيّة وتنفر منه الطّبائع السّوية، لأنّ الحياة أخذ وعطاء.

الاستيراد ليس عيبا ولا حراما، لكنّ العاقل الذّي يحرص على مصلحة بلاده وشعبه لا يقع فريسة شهوة الرّبح القاتلة ويُعرِض عن جميع المعطيات الاقتصادية والاجتماعية والسّياسيّة التّي تترتّب على هذا الانسياق الجنونيّ وراء استيراد كلّ شيء مهما كان هذا الشّيء..!

قال لي قريب إنّه سافر جوا في رحلة داخلية وكان يرتدي "القَشّابيّة"، وعندما وصل إليه مضيف الطّائرة، وكان يوزّع الجرائد، تجاهله وكأنّ صاحب "القَشّابَة" لا صلة له بالثّقافة..

إنّنا نجد القَشّابيّة في معاجم لغتنا بألفاظ القَشَابة والقَشيب وهي بمعنى الجديد والنّظيف والجميل.. وعبر تلك القشابة والجمال نستطيع الرقيّ إلى أعلى مراتب الثّقافة والعلم، وفي الوقت ذاته "نأكل مما نزرع ونلبس مما نصنع".

مُهِمّ جدا أن يتذكّر كلّ من الرّاعي والرّعية أنّ ثقافة الأكل واللّباس هي لبّ الاقتصاد ومن ثمّ السّياسة والسّيادة..

وما أدراك ما السّيادة..؟

# في المولد.. احذر برامجهم

المولد النّبويّ الشّريف ذكرى عزيزة على قلوب المسلمين جميعا ففي شهر ربيع الأّول، شعّ النّور على البشريّة جمعاء وراح يبدّد ظلمات الجهل والشّرك ويأذن بفجر جديد قوامه التّوحيد والعلم والعمل الصّالح، وشعاره الحريّة التّي أحسن التّعبير عنها الخليفة الرّاشد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه عندما قال: "متى استعبدتهم النّاس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارا".

بدعةٌ جديدة ظهرت هذه السّنوات وراحت تستفحل سنة بعد أخرى وهي انتشار المفرقعات، بل قل المتفجّرات، بشكل رهيب، وتحت سمع وبصر الجميع رغم ما تخرج به الصّحف علينا من أخبار عن ضبط وحجز كميّات من هذه المواد المتفجّرة هنا وهناك.

سمعتُ أن أحد الأغنياء احتفل بذكرى المولد مرّة بطريقته الخاصّة، وهكذا اشترى لأولاده مفرقعات بمبلغ ثلاثين مليون سنتيم.. نعم بهذا المبلغ الذّي يفوق الدّخل السّنويّ لأسرة متوسّطة الحال في بلادنا..!

طاولات البيع في كلّ مكان، والأشكال والأسماء متجدّدة كلّ عام، وبارونات المفرقعات وأتباعهم يتبارون دائما في انتحال أسماء جديدة تتماشى مع عواطف الشّارع الجزائريّ، ولا يتورّعون عن استخدام أسماء مثل "القسّام" على مفرقعات استوردت خصيصا للاستحواذ على أموال النّاس وإزعاجهم في الوقت ذاته.. وشتّان بين "قسّام" يبحث عن إعادة الكرامة المفقودة و"قسّام" يستنزف أموال النّاس..!

تحت ضغط الأطفال قد نشتري مفرقعات بمبالغ عاديّة، وقد نتغاضى عن أولادنا وهم يقتنون ما تيسّر لهم بمصروفهم الخاصّ.. لكنّنا نساهم في نجاح مشروع بارونات التّهريب، ونساعد على استمرار وترسيخ ثقافة هدر الطّاقات.

فماذا لو جُمعت كّل هذه الأموال لمشروع ينصر النّبيّ صلّى الله عليه وسلم ويعرّف النّشء بسيرته العطرة..؟

لنتواصى بالحذر من "البرامج المشبوهة" حتّى لو كانت باسم المولد النّبويّ الشّريف.

# نوفمبر وإعادة البرمجة

مساحة بلادنا تقترب من المليونين ونصف المليون كيلومتر مربّع.. مساحة واسعة بكلّ ما للكلمة من معنى، تنوّعت فيها التّضاريس من السّهول السّاحليّة إلى الجبال ثمّ السّهول الدّاخليّة والهضاب والسّهوب والصّحاري والبراري، وبين هذه وتلك نجد الوديان والبحيرات والمياه الجوفيّة والعيون الجبليّة.

لكنّ هذه المساحات بكلّ ما فيها من تنوّع لم تَرُق لنا ولم تتّسع لأفكارنا وإبداعاتنا الزّراعيّة..!

أعرف أنّ كثيرا من المواد الأساسيّة تأتي من الخارج، لكنّ ما ظلّ يستفزّني منذ فترة هو الثّوم وذلك عندما أطلبه من البائع فيقدّم لي ذلك الكيس الصّغير وعليه تلك الكلمات التّي صارت أشبه بالكابوس بالنّسبة لي: مستورد من طرف ش. ذ. م. م فلان للاستيراد والتّصدير حيّ كذا وكذا الجزائر، ثمّ عبارة: منتج في الصّين.

صبرتُ على همّ الثّوم الصّينيّ وكدت أطبّع العلاقات معه لولا تلك العبارة السّخيفة التّي قرأتها الأسبوع الماضي أيضا وأنا أقتني بعض الحاجات من حانوت العقاقير والأدوات المنزليّة.. إنّها عصا المكنسة، مجرّد عود طويل من الخشب لكنّها حملت عبارة: مستورد من طرف ش. ذ. م. م فلان للاستيراد والتّصدير حيّ كذا وكذا، الجزائر.. ثم عبارة: صنع في الصّين. قلت لصاحب الدّكان، والله لقد هَزُلت، ما بقي إلا عصا المكنسة نستوردها من بلاد تبعد عنا آلاف الكيلومترات، مع كثرة الأخشاب والعصيّ في طول البلاد وعرضها وعند الدّول المجاورة عربيّة وغير عربيّة.

إنّنا نحتفل هذه الأيّام بالذكرى الخامسة والخمسين لاندلاع ثورة نوفمبر المجيدة، وما أحوجنا إلى مراجعة معنى الاستقلال والحريّة الحقيقيّة..

ما أحوج الكثير من رجال الاستيراد في بلادنا إلى مسح كامل لما في أدمغتهم وإعادة برمجتها من جديد بمفاهيم صحيحة عن الوطن وحماية اقتصاده والاستيراد النّافع المفيد.

# المشكلة ليست في الصّينيين

قبل فترة استضفتُ في العاصمة أستاذا ماليزيا كان يعدّ بحثا حول الوقف في العالم الإسلاميّ، وكان برنامج الضّيف يتضمّن عدّة زيارات لوزارة الشّؤون الدّينية والمجلس الإسلاميّ الأعلى للحصول على معلومات وبيانات وأرقام وإحصائيات، ورأيتُ من المناسب حينها أن يستأجر الباحثُ سيارة أجرة مع سائقها لتظلّ تحت تصرّفه.

سارت الأمور على ما يرام ووجد الضّيف التّرحيب والمساعدة من الجهات المعنية وحصل على عدد معتبر من المجلاّت والدّوريات والكتب الخاصّة بموضوع البحث وما حوله، وحتّى أثناء المغادرة، عبر المطار الدوليّ، كان الموظّف الجزائريّ، الذّي يقوم بإجراءات الرّكوب واستلام الأمتعة، متعاونا فأعفى الضّيف من دفع ثمن الوزن الإضافّي بعد أن أخبرته أنّ ذلك عبارة عن كتب وإصدارات جزائريّة ستأخذ مكانها في مكتبة إحدى الجامعات الماليزيّة.

لنعتبر ما سبق ثرثرة مفيدة وننتقل إلى القصّة محلّ الشّاهد، وملخّصها أنّ الباحث الماليزيّ احتاج إلى حقيبة إضافيّة قبل السّفر بعدّة ساعات وكان الوقت مساء الجمعة، فسأل سائق سيّارة الأجرة عن أيّ سوق يعمل في هذا الوقت فكان الجواب بالنفي، فسأله إن كان في العاصمة تجار صينيّون، وكان الجواب أنّ هناك عدّة محلاّت في منطقة باب الواد.

وتحرّكت السّيّارة وكان الأمر كما توقّع الماليزيّ، فالصينيّون لا يعرفون للرّاحة معنى على حدّ قوله.

تذكرتُ تلك القصّة وذلك الضّيف الذّي يعرف الصّينيّين حقّ المعرفة لأنّ نسبة معتبرة من سكّان ماليزيا من ذوي الأصول الصّينّية..

تذكّرتها وأنا أقرأ كلاما تحذيريا في صحيفة وطنية عن العمالة الأجنبيّة، خاصة الصّينية، التّي "فلتت من الرقابة وتمرّدت على شروط العمل".

والغريب في ما أوردته الجريدة أنّ اللّوم كان منصبّا بشكل كامل على القانون والإجراءات، بينما الحقيقة أنّ الخلل فينا لأنّهم يقدّسون العمل وكثير منّا يحتقره.

# نوفمبر والبناء الحضاريّ

كنت صغيرا نسبيا عندما توفّيَ الرّئيس هوّاري بومدين، رحمه الله، ومع ذلك تابعتُ الجنازة في بيت أحد الجيران الأكابر.. أكابر لأنّهم يملكون جهاز تلفزيون (سونليك) أبيض وأسود.. وهو مع الهوائيّ المحلّق في السّماء دليل غنًى في تلك الأيّام.. لأنّ التّلفزيون كان نادرا بين سكّان القرى، وهكذا يتجمّع الكثيرون في بيت واحد لمتابعة الأحداث الكبرى والمباريات الرّياضية.

خيّم الحزن على النّاس في قريتنا خلال الأيّام الثّلاثة الأولى خاصّة أنّ التّلاوة والموسيقى الحزينة كانت تُبثّ مباشرة، نقلا عن المذياع، عبر مكبّر الصوت في المسجد.. ثمّ استمرّ الحداد بعد ذلك أربعين يوما كان أكثر حديث النّاس خلالها عن الرّئيس الراحل ومن سيحلّ محلّه.. سمعتُ إحدى النّساء تقول، وهي تتحسر على فقدان الرّئيس: إنّ الهوّاري قال لو أعيش عشرين سنة أخرى سأجعل الجزائر جنّة والجميع يأكل دون أن يعمل.. ما زلتُ أذكر كلامها بالحرف الواحد.. وعندما كبرتُ أدركت استحالة نسبة تلك العبارة والفكرة إلى رجل يقدّس العمل مثل الرّئيس الراحل هواري بومدين، وأدركتُ أيضا أن أمانينا المريضة هي التّي تصوّر لنا مثل ذلك الكلام وتزيّنه.

أسوق هذا الكلام بين يدي ذكرى نوفمبر السّادسة والخمسين التّي تمرّ بنا هذه الأيّام.. أسوقه لنتساءل إن كانت النّخبة قد استطاعت البناء على المقدّمات العظيمة التّي نملكها لنصل إلى نتائج أعظم في مجال البناء الحضاريّ الحقيقيّ الذّي يقوم على أسس ضاربة في أعماق الموروث لكنّها تتطلع برؤوسها إلى المستقبل بجميع آفاقه وتحدّياته.

جميع الأمم تحتفل بأعيادها وأمجادها وتقدّر كبارها وأبطالها..

لكنّ الأمم الواعية تترجم ذلك إلى إنجازات حضاريّة مستمرّة ومتجدّدة على صعيد الرّشد الإداريّ والسّياسيّ والمواطنة وسيادة القانون والرّخاء الاقتصاديّ والإنتاج الحقيقيّ والوعي بالذّات وتطوّرات العالم المحيط بها.

# في الأسرة
# والطّفل

# مجرّد أطفال

كان في المجلس خبير تربويّ فشكا صديقي إليه ابنه الصّغير الذّي يملأ البيت دائما صخبا ولا يكاد يهدأ طوال اليوم لأنّه يملك طاقة كبيرة متنامية... قال الصّديق ذلك وطلب حلاّ سريعا لأنّ الأمر صار مزعجا..!

سكت الخبير بعض الوقت وكأنّه يفكّر في حلّ لهذا التّحدّي الصّعب الذّي أمامه، ونطق بعد ذلك بجملة واحدة معتبرا إيّاها الحلّ النّاجع أو بعضا منه على الأقلّ.. قال: غيّر نظرتك لموضوع ابنك..!

الإشكاليّة تكمن في نظرة البعض لموضوع لعب أو صخب الأولاد، ويعجبني كثيرا أولئك الذّين يتعاملون مع هذا الأمر ببساطة، وقد رأيتُ مرّة كهلا يسير في الاتّجاه المعاكس لي على الرّصيف والهدوء والطّمأنينة هي التّي كانت بادية على وجهه، وربّما كان فكره يجول ويصول بعيدا عن المكان وأهله... وفجأة تجاوز الرجلَ طفلان يتسابقان ويجريان بسرعة، وضايقاه في الرّصيف الضّيّق أصلا، لكنّ الرّجل قابل الموقف بطرافة وضحك بهدوء قائلا: يا شباب رفقا بعمّكم الكبير.. وواصل طريقه والابتسامة لم تفارق شفتيه.

الكثير منّا يتشنّج في مثل هذه المواقف ويصيح ويصرخ وربّما يسبّ ويشتم أولئك الآباء الذّين لا يربّون أولادهم حسب رأيه، بعد أن يشبع الأولادَ، قبل ذلك، سبّا قد يصل إلى المارّة ويؤذيهم. ولا ينتهي الأمر إلى هذا الحدّ عند البعض؛ فأوّل ما يصل إلى بيته أو مقرّ عمله يعيد رواية القصّة من جديد ويكرّر نفس الشّتائم، وقد يظلّ "فاسد المزاج ليس له علاج" طوال النّهار.

كلّنا أمل أن يكون أطفالنا مثالا للأدب العاليّ في الشّوارع والطّرقات والمجالس، لكنّ الحقيقة أنّ الأطفال يظلّون أطفالا مهما بلغوا من التّربية والأدب.

فالرّفق الرّفق بهم لأنّهم مجرّد أطفال..

وقد كنّا يوما أيضا مجرّد أطفال.

# بابا قال لي "مَتْبِيعِشْ"

بابا قال لي لا تبيع المنزل... قالها بصوت هادئ هاشّ باشّ وبلهجة سوفيّة عاديّة.. تعجّبتُ في البداية من هذا "البابا"، فأستاذي كبير في السنّ نسبيا ولم أكن أعلم أنّ أباه ما زال على قيد الحياة، ثمّ تذكّرتُ أنّه ينادي أخاه الأكبر بـ "بابا".

إنّه أحد أساتذتي يوما ما بإحدى ثانويّات الوادي العامرة.. كان الحديثُ عبر الهاتف وكان الأستاذ الفاضل يرغب في شراء سكن في العاصمة بعد أن يبيع بيته في الوادي، لأنّ صحّته، خاصّة في الصّيف، صارت في حاجة إلى محيط بعيد عن حرارة صيف الصّحراء اللاّهب.

أستاذي أبيض الرّأس واللّحية وتقاعد منذ سنوات وأكبر أبنائه متزوّج وطبيب محترم يملأ مركزه بجدارة، لكن.. وعندما كان يحدّثني شعرتُ أنّني استمع إلى شبل في بداية سنّ الرّشد تربّى على ذلك الاحترام الشّديد للوالدين وكبار السنّ عموما.

إنّه التّرابط الأسريّ والاحترام الذّي كان صمّام الأمان في مجتمعاتنا، وما زال كذلك لو توجّهت الجهود بعزم وإخلاص نحو إعادة اللّحمة إلى الأسرة من جديد عبر تعاون يجمع بين الاحترام والوعي بالحقوق، والتّرابط والتّناغم بين الأجيال.

أستاذي يعدّل من مشروعه تماشيا مع رغبة "بابا" الأخ الأكبر..!

ونسمع في المقابل عن مآسي بين أبناء، لم يبلغوا العشرين، وآبائهم...!

تمرّدٌ وعقوقٌ حتّى إن أحدهم قال لأبيه بعد أن تخاصما: احسب ما صرفته عليّ منذ ولادتي وسأدفعه لك فهذا ما يجمع بيني وبينك..!

يتحدّث علم النّفس عن ذلك الطّفل الذّي يظلّ في داخلنا طوال العمر.. فما أجمله..

ما أجمل أن نظلّ أطفالا في كثير من المواقف..

عفويّة في بعض الأحيان، ومزاح بريء في أحيان أخرى.. وتقدير واحترام للكبار لا يعرف الحدود.

# رسائل الانتحاريّين

في مذكّراته الموسومة بـ: "قصّة تجاربي مع الحقيقة" يتحدّث المهاتما غاندي، صاحب نظريّة اللاّعنف، عن تجربة خاضها في صباه حيث حاول الانتحار مع رفيق له بعد أن ذاقا ذرعا بالقيود العائليّة.

ذكر غاندي أنّه حاول الانتحار مع رفيقه وفشلا في ذلك حيث خانتهما شجاعتهما في آخر الأمر على حدّ تعبير الزّعيم الهنديّ الرّاحل.. لقد افترضَا سيناريو آخر، وهو أنّهما قد لا يموتان في الحال.. ثمّ تساءلا عن الفائدة المرجوّة من قتل النّفس..؟ وبالتّالي استعاضَا عن كلّ ذلك بالصّبر على فقدان الاستقلال داخل الأسرة..

يواصل غاندي الحديث بعد ذلك فيقول: "لقد أدركت أنّ الإقدام على الانتحار ليس سهلا كالتّفكير به، ومنذ ذلك الحين أمسيت لا أتأثّر إلا قليلا، أو لا أتأثر البتّة، كلّما سمعت أن امرَأ يهدّد بالانتحار".

يصعب الحديث في هذه العجالة عن الفروق بين مجتمعنا ومجتمع غاندي خاصّة أنّها زمنيّة ومكانيّة وثقافيّة ودينية وحتّى جغرافيّة طبيعيّة، كما يصعب الحديث أيضا عن مدى منطقيّة تطبيق تجربة غاندي مع الانتحار، وهل يصدق ذلك على جميع الشّباب، حيث يكون الخوف فعلا مانعا قويا، وبالتّالي يستطيع الآباء والمسؤولون إغماض أعينهم عن تلميحات الشّباب نحو الانتحار أو حتّى التّهديد المباشر به.

لقد ذاع خبر شابّ منتحر مع أنّه ينتمي إلى أسرة ميسورة الحال، وقرأتُ عن آخر لقيَ المصير ذاته، وفي الحالتين اختار الرّاحلان ليلة عيد الأضحى حيث الاستعداد للفرح ولقاء الأحباب والأقارب..! واختيار الرّحيل بهذه الطّريقة رسالة موجّهة إلى جهة أو جهات قد تكون الأسرة من بينها.. وعلى تلك الجهات أن تدرك حجم الخطر المحدق وهو جرأة الشّباب المعاصر على الانتحار، خلافا لفكرة غاندي..

إدراكٌ تتبعه جهود متواصلة لنشر البسمة والتّفاؤل وتحويل المجتمع إلى محضن دافئ يخفّف من وطأة اليأس والقنوط.

# مشروع جلاّد

طيّب وصالح في نفسه ويحاول إصلاح غيره ومساعدة الجيران بما تيسّر له من وقت وجهد، ويحرص على أن يكون الشّارع الذّي يسكن فيه مثالا للنّظافة المعنويّة والحسّية.

إنّه أحد جيراني الطّيبين رغم كثرة كلامه وتعليقاته وتعقيباته المستمّرة على أطفال الجيران الآخرين الذّين يحتفظ لأغلبهم بملفّات متجدّدة في ذهنه: فذاك يكثر اللّعب، والآخر لا يطيع والديه، والثّالث يقضي كلّ وقته في الشّارع..!

حدثّني مرّة عن ابن فلان، أحد جيراننا، وقال إنّ أباه رجل صالح وطيّب، لكنّه لم يتابع ابنه منذ الصّغر وهو الآن يعاني من تصرّفاته الرّعناء رغم أنّ الطفل لم يبلغ سنّ الرّشد بعد.. وأردف قائلا: لقد ضرب ابني مرّة، ولم استطع اللّحاق به، وذهبتُ إلى أبيه وشكوته إليه، فقال لا حيلة لي.. وتابع بنوع من العنتريّة: قلتُ له أمام أبيه لو أمسكتك مرّة أخرى فسأربطك في عمود الكهرباء وأضربك بسلك معدنيّ.. أضربك وأضربك حتّى يصير جلدك أزرقَ وتعجز عن المشي تماما.

كنتُ أسمع وأشعر أنّني عاجز عن أيّ تعليق فوريّ حول هذا المشهد البشع الذّي رسمه خيال جاري "الطّيّب".

في السّياق ذاته روى لي صديق ما دار بينهم وبين أحد جيرانهم الذّي فقد هاتفه النّقّال ورمى بالتّهمة على ابن أخ هذا الصّديق، وعندما طالبوه بالدّليل أو حتّى شبهة دليل، قال أشبعوه ضربا حتّى يلزم الفراش وبعدها سوف يعترف..!

والسّؤال الذّي يطلّ برأسه هنا: ماذا لو تولّى أمثال هؤلاء مناصب يتحكّمون من خلالها في رقاب العباد ووجدوا "المبرّر الشّرعيّ والعقليّ"، وتوفّرت لهم بطانة السّوء التّي تزيّن وتشجع..؟

إنّهم مشاريع جلاّدين بامتياز، وما أكثرهم في مجتمعاتنا..!

فالحرص ثمّ الحرص على نشر أفكار وسلوكيّات الرّفق واللّين والرّحمة في أوساط أولادنا وأُسَرِنا لنحمي أنفسَنا من شرور أنفسنا.

# معتقل العوانس

سيّدة بيت نحسب أنّ السّنين قد سلّحتها بنصيب وافر من الحكمة ورجاحة العقل.. تسمع تلك العاقلة أن أقارب أو جيرانًا قد خطبوا لابنهم فتاة تجاوزت سنّ العشرين بعدد من السّنين.. تعيب عليهم ذلك المذهب وكيف اختاروا عانسا لابنهم صاحب الجلال والكمال..!

ما العيب في ذلك..؟ قد يكون الحقّ إلى جانبها.. لا وألف لا.. فالمرأة قد جانبت الصّواب وتخطّت حدود العقل والحكمة، لأنّ في بيتها عدّة بنات ممّن حكم عليهنّ المجتمع الظّالم بأنّهنّ عوانس، وما هنّ كذلك لولا تلك المقاييس التّي وضعناها لأنفسنا وسلّطناها سيوفَ قهرٍ وظلمٍ على بعضنا البعض.

إنّ تحديد السّنّ الذّي تصير فيه الفتاة عانسا من صنع أيدينا وتصوّراتنا، وهكذا نجد مجتمعات قرويّة وشبه قروية ترسم سنّ العشرين خطا فاصلا بين البوار والزّواج، وهناك مجتمعات أخرى تظلّ فيها الفتاة فتاةً حتى سنّ الثامنة والعشرين وما بعدها.

وطرح أمر السّنّ المتقدّم نسبيا، في هذه العجالة، ليس دعوة لتأخير الزّواج بالنّسبة للفتيات، لكنّه صرخة تنبيه في وجه الاستهتار بالنّساء وحشرهنّ اجتماعيا في (معتقل العوانس) والحكم عليهنّ بالبقاء هناك إلى لحظة خروج النَّفَس الأخير..!

هناك ظروف اقتصاديّة تضطرّ الشّباب إلى تأخير الزّواج إلى ما بعد سنّ الثّلاثين.. فإذا تيسّرت الأمور راح الأهل يبحثون للشابّ العانس عن ابنة العشرين وأقلّ من ذلك في كثير من الأحيان.. والنّتيجة تزايد عدد العوانس.

ما أحوجنا إلى تغيير نظرتنا بعد أن تفاقمت ظاهرة العنوسة.. ولماذا لا تقود النّساء عندنا حملة عفويّة لتغيير مفاهيم العنوسة ومقاييس الزّواج.. وهكذا تتعالى صرخات الفتيات في وجه الشّباب الذّي تجاوز الثّلاثين: أنتم أيضا في معتقل العنوسة فاخرجوا منه عبر بوابة (معتقل العوانس)..

والأمر ممكن.. فَمَنْ يعلو على النّساء في الدّعاية والإعلان ونقل الكلام وترسيخ المصطلحات الجديدة..؟

# في الطّريق
# وحياة الآخرين

# الانطلاقة الصّحيحة

كانت بلاده تعاني من فساد وفوضى طالت حتّى بطاقات الهويّة، وكان يحدّثني بحماس عن نظام كمبيوتريّ رقميّ جديد لضبط الوضع والوصول إلى بطاقات هويّة ذات مرجعيات وأصول ثابتة في مراكز معلومات محليّة ومن ثمّ مركز وطنيّ موحّد.

استمعتُ إليه حتّى النهاية ثم بادرته بسؤال بسيط.. ومن سيعمل على هذه الأجهزة ومن سيكون الأمين على مراكز المعلومات هذه..؟ فأجاب: موظّفون من بلادنا بطبيعة الحال.. فخشيتُ أن أسيء إليه وإلى مشاعره إذا علّقت على جوابه، فقلت في نفسي: كأنّك يا أبو زيد ما غزيت..!

في دولة عربيّة متقدّمة مدنيا إلى حدّ معتبر تعمل الرّادارات على الطّرق السّريعة وغيرها بشكل فعّال، وترى نورا يندفع بقوّة من أحد الأعمدة لتدرك أنّ سيّارة قد كسرت الإشارة الحمراء، وأنّ صورتها الزّاهية الألوان صارت لدى إدارة المرور.. لكنّ ما يشوّش على تلك الصّورة أن تسمع عن أبناء النّافذين، وكلّ من وصل إلى النّافذين، وكيف يتمكنّوا من حذف أرقام سياراتهم من جهاز الكمبيوتر الذّي تتجمع فيه أرقام السّيارات المخالفة.. يتمّ ذلك بمجرّد مكالمة هاتفية..!

أسوق كلّ ذلك بين يدي الحملات المشكورة المقدّرة التّي تقوم بها الجهات المختصّة في بلادنا للحدّ من السّرعة المفرطة والمخالفات المرورية، لأنّ القاصي والدّاني يدرك أنّ كثيرين يخالفون ويعربدون في الطّرقات وعندما يضبطهم شرطيّ أو دركيّ شجاع مخلص، يبتسمون في قرارة أنفسهم؛ فمحادثة هاتفية محدودة الكلمات تعيد لهم الوثائق المحجوزة، وتمنع عنهم الأحكام المفروضة..!

إنّ الانطلاقة الصّحيحة تبدأ من الإنسان الذّي يتشرّب احترام القانون ويتكيّف معه، وتستمرّ وتنمو مع سيادة القانون على الجميع ومنع الثّغرات فيه وفي طرائق تطبيقه، وتكون المحطّة النّهائية عند ذلك الانسجام البديع والثّقة المتبادلة بين القانون والمواطن والجهات المسؤولة.

# منظومة أخلاقيّة

حافلة نقل عامّة تقلّ قرابة الخمسين راكبا، والوقت مساء حيث خروج العمّال والموظّفين، وكان السّائق الشّابّ يتمايل بالحافلة يمينا وشِمالا لإيجاد مخرج لنفسه وتجاوز الاختناق المروريّ الحادّ، ويزاحم هذا ويتجاوز آخر بشكل مزعج، وهكذا ما لبث أن اشتبك مع سائق شابّ مثله وتقاربت المركبتان وكاد يحدث الخَطْب، فصاح عليه عدد من الرّكاب العقلاء ليتوقّف عن السّباق والتّشاحن.

صرخ السّائق الشّاب مبرّرا تصرّفاته الطّائشة: هو المخطئ.. فقلت له: مهما كان إيغال السّائق الآخر في الخطأ وانحياز الحقّ إليك وحدك، تظلّ أنت المخطئ لأنّه يقود سيّارة خاصّة يركبها وحده، وتقود أنت حافلة وتتحمّل مسؤولية عشرات الرّكاب.. مسؤولية شرعيّة وقانونيّة وأخلاقيّة.

واصل سائقنا طريقته الطّائشة في قيادة الحافلة وإن بشكل أقلّ من السّابق، وبدا لي أنّ كلماتي وزجر الرّكاب له لم يكن كافيا، فالأمر متجذّر، والسّلوك غير السويّ في السّياقة متأصّل بسبب عوامل كثيرة ومؤثّرات داخليّة وخارجيّة تحتاج كلّها إلى دراسة متأنيّة ومن ثمّ اجتثاثها من عقول ونفسيات السّائقين.

إنّ قيادة المركبات العامّة مسؤولية خطيرة ولا ينبغي أن تعطى لشابّ متهوّر، وما أكثر الحافلات التّي يقودها متهوّرون من الشّباب وحتّى غير الشّباب، تنقصهم الخبرة وروح المسؤولية ويزيدهم جشع كثير من المالكين تهوّرا إلى تهوّرهم.

إنّ بلادنا تعاني من ازدياد حوادث المرور بشكل مرعب، والحاجة ماسّة إلى دعم منظومة أخلاقيّة مهنيّة تشمل السّائقين عموما، لكنّ البداية بسائقي النّقل العام، فغالبا ما يُشار إليهم بأصابع الاتّهام وتُنسب إليهم تلك التّجاوزات الخطيرة وكثير من الإزعاجات التّي تحدث في الطّرقات الصّغيرة والكبيرة.

ولعل الإجراء العاجل في هذا السّياق أن يُحدّد سنّ هؤلاء السّائقين وتُشترط فيهم خصال أخلاقيّة تجعلهم أكثر مسؤوليّة.

# أنانيّة مَرَضِيّة

طابور طويل متزايد، وكلّ سائق ينتظر دوره والشّمس تلفح وجهه، وكلٌ له مقصده ومشاغله، وكلٌ له زوجة وأولاد ينتظرونه أو حاجة ملحّة في طريقه إليها.. يأتي آخرون ويتجاوزون ويخلطون الحابل بالنّابل في الطّابور ويختصرون المسافة من الجهة الأخرى وعند نقطة التّفتيش أو المكان الضّيق يحاصرون الآخرين ويدفعونهم دفعا إلى ترك الطّريق لهم..!

يقومون بكلّ تلك الحركات السّخيفة بمزيج من التّهوّر والأنانية والوقاحة والاستهتار بمستعملي الطّريق وأوقاتهم.

أنانيّة مرضيّة تتكرّر كثيرا في طرقاتنا الرّئيسية والفرعيّة، وفي المدن والقرى والأرياف على حدّ سواء، وإن اختلفت قليلا من جهة إلى أخرى..!

ترى أحدهم يتوقّف بسيّارته في مكان ليُنزل شخصا أو يشتري شيئا ويعرقل حركة المرور ويزعج عشرات السّيارات ويعطّل مصالح غيره دون أيّ شعور بالخجل من نفسه والآخرين.

وترى سائقين مسرعين دائما لا يراعون غيرهم ولا ينتبهون للسّيارات التّي تضطر لقطع الطّريق أمامهم، مع أنّ ذلك لا يكلّف سوى لحظات معدودة، ويمرّ كلٌ إلى حال سبيله دون عناء الانتظار الطّويل.. ومظاهر أخرى سلبية نراها في طرقاتنا تدّلل على مقدار الأنانيّة المرضيّة المنتشرة عند كثير من مستعملي الطّرقات.

هناك تمرينات نفسيّة وذهنيّة بسيطة تساعد على الوقاية من شرّ أنانيّة الطّرقات هذه، وهي أن نضع أنفسنا في مكان أولئك المضطرّين للمرور فلا بدّ أن نقف لهم هنيهة، وأن نتصوّر أنفسنا ونحن ننتظر دورنا لوقت قد يطول لنمرّ من خلال الاختناق المروريّ، فيأتي من يتجاوز بشكل غير أخلاقيّ وغير قانونيّ وهكذا..!

لنجرّب وضع أنفسنا في مواقع الآخرين، ونعتقد أنّ أوقاتهم من ذهب كما هي أوقاتنا تماما، وليست من فضّة أو نحاس أو حديد.. وعندها ستغادرُ الأنانيةُ المرضيّة نفوسنا إلى غير رجعة.

# أفتُونا يرحمكم الله

الوعيُ بخطورة التّجاوزات المروريّة من النّاحية الشّرعية مازال دون المستوى المطلوب، والمأمول من كلّ مشتغل بالعلوم الشّرعية أو الخطابة بذل جهد مضاعف لينجلي الأمر للسّائقين المتهوّرين أو الغافلين.

صاحب شركة نقل عامّة يوظّف سائقا وهو يعرف أنّه غير كفء، أو أنّ روح المسؤوليّة معدومة لديه، بل وربّما كان مدمن خمر أو مخدّرات.. ألا يعتبر صاحب الشّركة في حكم قاتل العمد إذا تسبب ذلك السائق في وفاة الركاب..؟ أفتونا أيّها السّادة العلماء بارك الله فيكم.

ومدير شركة نقل أيضا يعلم أنّ أحد سائقيه يقود الحافلة لمئات الكيلومترات ثمّ يعود بها مباشرة بعد ثلاث أو أربع ساعات دون أن يأخذ الحظّ الكافي من الرّاحة، وتحت مسؤوليته خمسون راكبا، ألا يعدّ المدير قاتلا متعمّدا إن حدث للرّكاب مكروه..؟ أفتُونا أيّها المشايخ.

وسائق يرتاد طرقا قرب المدارس والأسواق وهو يعرف مسبقا أنّ سيّارته دون مكابح كافية.. ألا يعدّ قاتلا متعمّدا إذا صدم تلميذا أو شيخا..؟ أفتُونا يا أصحاب الشّأن.

وسائق يدخل قرية أو حيّا مكتظّا أو يصادف ساعة انصراف تلاميذ أو عمال، وتراه ينطلق بسرعة عالية كأنّه في طريق سريع أو حمادة مترامية الأطراف.. فإذا قتل أحدا فهل هو غير متعمّد..؟ أفتُونا يا أهل الفقه..؟

ومهندس مناجم يرخّص لسيّارات بالسّير في الطّرقات دون صلاحية وكفاءة حقيقيّة، وشرطيّ أو دركيّ يرى ابن فلان يعربد بسيّارته في الطّريق ويدوس على القوانين ولا يردعه مراعاة أو خوفا من أبيه.. ألا يعد هؤلاء وأمثالهم شركاء في القتل..؟

أنيروا بصائر النّاس يا أهل العلم وأنتم تعلمون أنّ من شروط القتل العمد عند الفقهاء أن تكون الأداة التّي استعملت في القتل ممّا يُقتل بها غالبا.. وها هي السّيارات قد صارت الأداة الأولى للقتل في بلادنا..!

# اقتل نفسك بعيدا عنّي

دخل المطعم وبدأ يدخّن سيجارته المفضّلة دون أدنى شعور بروّاد المطعم، ودون انتباه أنّ المكان عامّ وأنّ للآخرين كلّ الحقّ في أن يتناولوا وجباتهم في جوّ خال من أيّ منغّصات ولو كانت بسيطة محدودة، فكيف والمنغّص هو دخان سام قاتل..؟

بدأ الرّواد يخرجون الواحد تلو الآخر... يخرج أحدهم بعد وضع ورقة صغيرة أمام الشّخص المدخّن الذّي وجد أمامه في نهاية الأمر مجموعة من الأوراق تحمل عبارة واحدة وهي: اقتل نفسك بعيدا عنّي..!

المشهد السّابق الذّكر عرضته قناة تلفزيونيّة عربيّة جادّة في برنامج يعالج قضايا اجتماعية وشبابية.. والحقيقة أنّنا في حاجة إلى تلك الوريقات ومعها تلك الكلمات المعبّرة وإن كنت أفضّل إضافة ما يؤكّد حرصنا على حياة الشّخص المدخّن من قبيل: حياتك غالية وإن كنتَ مصرّا على وضع نهاية لها، فليكن ذلك بعيدا عنا.

الأمر نفسه يتكرّر في ميدان آخر وإن كانت وسائل القتل مختلفة تماما، حيث التّعديّ على حياة الآخرين بمختلف أنواع السّيّارات والشّاحنات الحديثة والعتيقة على حدّ سواء، والقَتَلَةُ هم شباب وكهول وحتّى شيوخ يلتقون جميعا على عشق الاستهتار بالآخرين والتّهور المفرط الذّي يفوق كلّ الحدود.

ترى أحد هؤلاء القَتَلَة يسير في طريق ضيّقة أو مزدحمة بسرعة لا يقبلها عاقل حتّى في الطّريق السّريع وربّما في منتصف اللّيل حين تتوقّف الحركة تماما أو تكاد..! وترى آخر يلعب في الطّريق السّريع يمينا ويسارا معتمدا في ذلك على ما يظنّ أنّها مهارة وخفّة لا يملكها الآخرون..!

فما أحوجنا أن نصرخ في وجوه جميع المتهوّرين في الطّرقات:

إن كان الموت هو ما تريدون، فنرجوكم أن يكون ذلك بعيدا عنا، لسنا جبناء، لكنّنا نقدّر نعمة الحياة.

# في الغذاء
# والدّواء

# شاي بالملح

في مرحلة الدّراسة المتوسّطة حدّثنا أحد الأساتذة عن أزمة في إنتاج البطاطا توقّعَتْها حكومة إحدى الدّول العربيّة، ونبّهت شعبها إلى ضرورة التّقليل من استهلاك هذه المّادة الغذائيّة ذلك العام خوفا من نقص حادّ قد يضطرّ الحكومة إلى الاستيراد.

ولأنّ ذلك الشّعب كان متشبّعا إلى حدّ ما بالثّقافة والوعي؛ فقد حصل العكس ذلك العام، حيث حقّق الإنتاج فائضا، والسّبب أنّ أكثر النّاس تفاعلوا مع تحذير الحكومة وخفّضوا بالتّالي من استهلاك البطاطا.

أسوق هذه القصّة، أو التّجربة الواعيّة، وبلادنا لا تكاد تخرج من أزمة غلاء مادّة غذائية أساسية حتّى تبدأ أخرى، وهكذا دواليك في متواليّة تكاد تحصر أحاديث المواطنين وانشغالاتهم في دوائر وزوايا الزّيت والسّكر والدّقيق واللّحم والعجائن والخضر والفواكه وغيرها.

وأمام هذا الواقع المزري تطول أعناق تجّار الأزمات ويشرعون في ممارسة هواياتهم القذرة في استغلال الوضع والثّراء على حساب المواطن البسيط، وتغذية حياة الناس بسيل شبه دائم من الإشاعات والأقاويل والأخبار المغرضة.

إنّ الوقوف في وجه هذا التّحدي وقطع جذور المشكلة في يد المواطن وحده حين يمتشق سيف الوعي ويلبس درع القناعة ويقاوم الإشاعة بعدم سماعها أصلا أو دفنها عنده والامتناع عن المساهمة في عملية التّوزيع والدّعاية المجّانية.

والعلاج لا يعدو أيضا بعض الصّبر ومجاهدة النّفس والإيمان بأنّ الموت والحياة بيد الله تعالى وحده ولا دخل لسماسرة الأزمات في ذلك.. وهكذا نؤثّر، بالحكمة والتعقّل والمبادرة الشّخصية، على بورصات الأسعار الملتهبة، ونجبر أصحاب المخازن العامرة على إخراج ما فيها وهم صاغرون، وبأسعار يقبلها الدّين والعقل والمنطق السّليم.

إنّ مادة السّكر مثلا أساسية إلى حدّ كبير لكنّ التّخفيف منها ممكن وممكن جدا، لبعض الوقت على الأقلّ، ولنا في شعوب أخرى عبرة، فإخواننا الخليجيّون يشربون قهوتهم دون سكّر ويتناولون معها التّمر، والأفغان يشربون الشّاي دون سكّر لكنه خفيف بطبيعة الحال، أمّا كشمير، جنة الله في الأرض، فيشرب بعض أهلها الشّاي بالملح ويسمّونه (تْشُورْ تْشَايْ).

# تنازل غير مبرّر

أصابتني نزلة برد يوم جمعة فاقترح عليّ شقيقي زيارة صيدليّة قال إنّ بها طبيبا يسهّل الطبّ للمرضى حيث يشخّص الدّاء ويقدّم الدّواء مباشرة.

وافقتُ على الأمر رغبة في خوض هذه التّجربة، وهناك وجدنا عددا من المرضى في الانتظار، وتطوّع أحد الشّباب قائلا إنّ الطّبيب في الطّريق إلينا فهو صديق له وقد حدّثه هاتفيا قبل قليل.

وجاء عامل الصّيدلية فدخلنا وأخذنا أدوارنا ليعلّق أحد المراجعين أنّه رأى الطّبيب في العُرس قبل قليل، فاتّصل "الصّديق" بالحكيم قائلا: أوّل مرّة أرى دكتورا يكذب..! فقلتُ في نفسي كيف يسمح طبيب لنفسه أن يسمع مثل هذا الكلام..؟ وكيف يكون وقعه على المرضى..؟ ومع ذلك واصلتُ خوض التّجربة.

حضر الطّبيب الشّاب مرتديا قميصا شعبيا وبدأ العمل حين استلم ولدا واستمع إلى والده.. ثمّ جاء بحقنة وغرسها في جسم الصّبيّ، وجاء الدّور على ولد آخر فشخّص الدّاء وقبل أن يجهّز الحقنة استلم مبلغا ماليا ووضعه في الصّندوق وواصل عمله كأنّ شيئا لم يحدث.

كنتُ مشدوها لما يجري فقال لي أخي تقدّم فقد اقترب دورك، فقلت اخرج بسرعة ودعنا نتوجّه إلى عيادة الطوارئ.. وفي الطّريق شرحتُ له أنّ النّقود من أكبر ناقلات الجراثيم.. فكيف يمكن للطّبيب أن يستلم مصادر الأمراض بيده ويعطي بها الحقنة في الوقت ذاته دون أيّ مطهّرات..!

قد نتفهّم عفويّة الحكيم وتقريبه للطبّ من المواطن، لكنّ الطبّ في حاجة دائما إلى المحافظة على طقوسه وتقاليده في الحدّ الأدنى منها على الأقلّ..

نعم نريد الطّبيب السّهل المرن الذّي يقابل المريض بابتسامة ومرح، بل يزوره في بيته ويعالجه هناك..

لكنّ الحدود الضروريّة من النّظافة والهيبة وإجراءات الوقاية لا ينبغي التّنازل عنها بأيّ حال من الأحوال.

# دعونا نفوّت الفرصة عليهم

رمضان شهر مبارك أنزل الله فيه القرآن، وهو أشبه بالمحطّة التّي ينتظرها المسلم سنويا ليتزوّد منها روحيا، لكنّ هذا الشّهر الفضيل لا يختلف عن غيره من شهور العام الهجريّ في جانب الطّعام والشراب، بل إنّه يتميّز بعدد أقلّ من الوجبات الغذائية.

أعدادٌ معتبرة من النّاس، خاصّة بعض ميسوري الحال، تعوّدوا على الإعداد لشهر رمضان المبارك بغير العدّة المطلوبة فيه، ودأبوا على استقباله بغير الوجه الذّي يليق به، حيث البرنامج الحافل بالأطعمة والأشربة وما يتطلّبه ذلك من مسح كامل للأسواق واستفسار متواصل عن الجديد في عالم الطّعام والحلويات والفواكه وغيرها..!

وللأسف الشّديد يتكرّر المشهد البائس كلّ عام، وتعيد الأيامُ نفسَها: مواطنون تزدحم بهم الأسواق، وفي المقابل نرى تجارا يتفنّنون في رفع الأسعار وافتعال أزمات في بعض أنواع السّلع والمأكولات، والنّتيجة الطّبيعية بعد ذلك لن تكون سوى تزايد في الطّلب على تلك السّلع، وارتفاع نسبة الفائدة فيها على حساب ذوي الدّخل المحدود.

وخلال رمضان، وحتّى بعده، يضيع الكثير من الوقت والجهد في الحديث عن غلاء الأسعار واحتكار مواد أساسية وفوضى الأسواق، وتكتب الصّحف ويتحدّث التّلفاز ويصرّح المسؤولون ويتبادلون التّهم مع التّجار، ويرمي تجّارُ الجملة الكرةَ في ميدان تجّار التّجزئة فيعيدها هؤلاء إليهم مصحوبة بتهمة طالما سمعناها وهي أنّ تجّار الجملة هم الذّين يتحكّمون أساسا في حركة الأسعار.

والمَخرج من كلّ ذلك هو العودة إلى معاني رمضان الأساسية، والتّقليل من الاهتمام بالطّعام، وبالتّالي تفويت الفرصة على السماسرة والجشِعين.

هيّا لنعيش رمضان، خاصّة الأيّام الأولى منه، بشكل شبه عاديّ في طعامنا وشرابنا، ولن نموت جوعا ولن يكون صيامنا منقوص الأجر إذا افتقدنا ذلك الطّعام أو تلك الفاكهة على مائدة الإفطار.

# مرض السّكر.. الوجه الآخر

السّكر مادّة غذائية أساسيّة في حياة الجزائريين حيث تتغلغل في تفاصيل يومياتهم بدءا من قهوة الصّباح إلى شاي المساء مرورا بالحلويّات والعصائر وغيرها.. لكن.. هل هو ضروري إلى تلك الدّرجة التّي تجعل الحياة من دونه مستحيلة..؟

أظنّ أنّك عزيزي القارئ تركت مرّة، أو مرّات، قهوة الصّباح حيث كنت على سفر أو غادرت البيت على عجل أو وجدت المقهى الذّي تتناول فيه قهوتك المفضّلة مغلقا، والأمر ذاته ينطبق على الشّاي الذّي يشتهر بين أهالي الجنوب والصّحراء، ويصل إلى درجة الإدمان عند بعضهم.

نسمع كثيرا عن قصص الطّوارق وارتباطهم بالشّاي الأخضر وطقوسهم الأسطوريّة التّي تصاحب الإعداد والتّناول.. جلسات قد تدوم عدّة ساعات وربّما تأخذ ثلث حياة الإنسان عندهم..! ومع ذلك فإنّ لكلّ واحد منهم مواقف تعرّض خلالها لفقدان مادّة الشّاي أو الماء، أو انتفاء القدرة على الاستقرار على وجه الأرض وإيقاد النّار بسبب عاصفة رمليّة هوجاء، وما أكثرها في الصّحراء الكبرى.

علميا وصحّيا: هل يتضرّر الإنسان إذا لم يشرب القهوة أو الشّاي صباحا، واستبدلها بحبّات من التّمر مثلا عند أهل التّمر، أو التّين عند أهل التّين والزّيتون..؟

لا يقع شيء على الإطلاق.. بل إنّ العكس هو الذّي يحدث، فأكل التّمر صباحا له فوائد محمودة والحكايات حوله مشهودة.

ومع ذلك لسنا في حاجة إلى الحديث عن ترك السّكر ومقاطعته والبحث عن بديل له من التّمور مثلا، لأنّ سنّة الحياة تقتضي التّعارف وتبادل المصالح بين القبائل والشّعوب قديما وبين اقتصاديات الدّول حديثا..

لكنّ غلاء أسعار السّكر هذه الأيّام يحتاج إلى وقفة جادّة، ليس أقلّها المقاطعة الجزئية لهذه المادّة والتّقليل منها على قدر المستطاع حتّى يرتدع السّماسرة ويتوب أهل الطّمع والجشع.

# في الشّعور
# والرّضا
# والأمل

## أربعون سنة مع العَرْعَار

جلس القُرْفُصَاء بعد أن أكمل مراحل إعداد سيجار "العَرْعَار" التّقليديّ، وأخرج علبة الكبريت استعدادا لطقوس التّدخين.. كان المشهد خلال وليمة عرس بقريتنا.

تابعتُ المشهد في البداية ثمّ قلت للبطل: إمّا أن تغادر المكان أو نغادر نحن، فقال: إذن سأترك الأمر مؤقّتا.. قلت له: كم سنة وأنت على هذه الحالة مع العرعار، قال: أربعون سنة..! قلت هل تشعر أنّك في مشكلة أو ضيق من هذا الإدمان..؟ قال: لا، أبدا.. أنا بخير والحمد لله..!

قلت لمن حولي: هذه هي أمّ الطّامات، أن لا يحسّ صاحب المشكلة بالمشكلة، لأنّه لن يفكّر حينذاك في حلّها أصلا، فهي ليست موجودة بالنّسبة له.. وتذكّرنا المثل العاميّ الذّي يتحدّث عن تلك العجوز التّي بدأت مياه الفيضان في محاصرتها وهي تردّد بسعادة: "يا له من عام طاهم".

هناك أربعة مراحل رئيسيّة للتّعليم والتّغيير وعند مراعاتها يستطيع الشّخص التخّلص من عادات سلبية لا يرغب فيها أو اكتساب مهارات جديدة..

أُولَى هذه المراحل هي الإحساس بالمشكلة والشّعور بالحاجة إلى التّغيير والتّعلّم، وهي مرحلة مهمّة جدا تنقل صاحبها إلى المرحلة التّالية وهي الوعي بما يجهل أو بحجم المشكلة أو الحاجة إلى تعلّم مهارة أو سلوك إيجابيّ، ثمّ ينتقل إلى مرحلة القيام بما يلزم، ثمّ المرحلة النّهائية وهي الحصول على المراد.

صاحبنا مدمن العرعار، لم يصل إلى المرحلة الأولى ولذلك ما زال يتجوّل بسيجارته في شوارع قريتنا..!

وكثيرون على شاكلته: المسؤول الذّي ينام ملئ جفنيه وملفّات مشاكل المواطنين يعلوها الغبار على مكتبه، لم يصل بعد إلى مرحلة الإحساس بالمشكلة، والذّي يعطّل مصالح النّاس، دون رحمة، في انتظار رشوة هو في هذه الدّركات أيضا، وسكّان قرية أو حيّ لا يأبهون لأكوام القمامة والأوساخ هم أيضا في هذا السياق.. وهلمّ جرا..

# تفاؤل متطرّف

كنت أقود سيّارتي وأحاول الالتزام بجميع قوانين المرور حتّى البسيطة منها، رغم الفوضى التّي يتفنّن البعض في المحافظة عليها عبر طرقاتنا.. ولأنّ شخصا كان يقطع الطّريق فقد خفّفت من سرعتي وأشرت له بيدي أن تفضّل..

إلى هنا لم يستطع رفيقي المتشائم المتذمّر، الرّاكب بجانبي، تمالك نفسه فقال لي: أنت آثرته فهل تتوقّع أن يؤثرك مرّة أخرى إذا تصادف أن يكون هو السّائق وأنت الرّاجل في هذا الطريق..؟

حافظتُ على هدوئي وذكرت له المثل المشهور: "كلّ إناء بما فيه يرشح".. وأردفتُ: إنّ علينا أن نكون إيجابيين ونؤثر الآخرين دون أن ننتظر ردّ الجميل على الإطلاق، علينا أن نتصرّف وفق ما نؤمن به من أخلاق وآداب وقوانين ولا ننتظر حتّى يعمل بها الآخرون أو يتعهّدوا لنا بتصرّف مماثل.

ما أجمل قول أحدهم: "إنّ الإيجابية عمل يمنع الكسل، وحيوية تُقْصِي السّلبيّة، وانتشار لا يقبل الانحسار، إنّها عطاء ليس له حدود، وارتقاء فوق كلّ السّدود، ومبادرة لا تكبّلها القيود".

كان رفيقي، سابق الذّكر، متشائما إلى أبعد الحدود، ناقما على أوضاع البلاد والعباد إلى درجات يصعب تصوّرها، وكلّما حدّثته عن بصيص أمل وحاصرته به وظننت أنّني تمكّنت من إفحامه؛ انخرط من جديد عبر جُمَل عنيفة وسرَدَ قائمة طويلة من العيوب والمشاكل والتّحدّيات والصّعاب التّي تجعل البلاد في رأيه غير صالحة للحياة بأيّ حال من الأحوال.

آخر مرّة قابلته فيها كرّر اسطواناته القديمة المشروخة نفسها، ولما عارضته بتفاؤل متطرّف لأردّ على تشاؤمه المتطرّف؛ صاح قائلا: البلاد في طريقها إلى الخراب بعد شهر فقط..!

فرددت عليه ضاحكا: إذن دعني أشعر بسعادة إضافية وأتمتّع بحياتي واستغلّ وقتي كلّ ساعة ودقيقة وثانية خلال هذا الشّهر الأخير.

# إلى مزيد من التّفاؤل

عندما تطالع الصّحافة الوطنيّة هذه الأيّام تضطّر إلى وضع يدك على أنفك لتفادي الرّوائح العفنة المنبعثة من بين الصّفحات، والسّبب هو ذلك الحجم المتزايد من أخبار الفساد والمفسدين ومئات المليارات التّي تاهت في الطّريق بعدما غادرت خزينة الدّولة باتّجاه المشاريع العمومية.

وفي المقابل تتابع نشرة الأخبار الرّئيسية في التّلفزة الوطنيّة لتكتشف أنّ البلاد والعباد بألف خير ومليون عافيّة وأنّ مسيرة البناء والتّشييد في أبهى حللها وأزهى سنواتها وأنّ بين بلادنا ودول العالم الأوّل مسيرة يوم أو بعض يوم.

المحصّلة النّفسية والذّهنية بعد قراءة الصّحف سوف تكون معاكسة تماما لما يحدث بعد متابعة نشرة أخبار دسمة ومثقلة بالإنجازات الكبرى في جهات الوطن الأربع..!

والنّتيجة العمليّة في الشّارع والمقهى والحافلة والمسجد والبيت: حوارات طرشان بين فئة متفائلة بما رأت وسمعت وأخرى متشائمة بما قرأت.

قد تتقاذفك عزيزي القارئ أمواج هؤلاء وهؤلاء، وإن كانت كفّة المتشائمين الشّاكين أرجح هذه الأيّام..!

لكنّ الموقع الأفضل هو الوسط لأنّ "خير الأمور أوسطها"، وهكذا ينبغي الحذر من الضّياع والتّيه في مجاهل التّهوين أو ظلمات التّهويل، فكلاهما مهلك للحرث والنّسل ومُغلِقٌ بالشّمع الأحمر للذّاكرة الجمعية الإيجابية، ومدعاةٌ ليأس مطلق مدمّر أو نوم وغفلة بائسة..

فالبلاد ليست على طريق الدّمار والهلاك تماما، وليست مثالية في كلّ الجوانب أيضا.

إنّ الشّعوب المتفائلة المبتسمة هي التّي تصنع المستقبل المشرق وتغزو العالم بعقولها وعضلاتها على حدّ سواء، وهكذا ما أحوجنا إلى توسيع دوائر التّفاؤل ونشر مساحات إضافية من الأمل تتزامن مع دعوات وجهود لزرع ثقافة الجدّ والاجتهاد والإتقان في العمل والتّفاني في بلوغ الأهداف السّامية للأفراد كلّ على حدة، وللمجتمع والدّولة بشكل عامّ.

# بين الضّابط والرّقيب

شابّان متقاربان سنًا ومتماثلان معيشة وبيئة وتجمعهما قرابة نسب وتربط بينهما وشائج صداقة توطّدت مع سنوات الطّفولة وتعمّقت مع مرحلة المراهقة ثمّ الشّباب.. ذهب الشّابّان إلى الخدمة الوطنيّة في دفعة واحدة لكن في مكانين مختلفين، وقابلتهما بعد ستّة أشهر، فكيف صارا وأين وصلت بهما المشاعر والأحاسيس والأفكار..؟

وجدتُ أحدهما وقد صار ضابطا لأنّه حاصل على اللّيسانس.. تحدّث معي عن متاعب الحياة العسكريّة وقال إنّه لم يجد من رفقاء الخير إلا القليل وعبّر عن تذمّره من القيام في الصّباح الباكر خاصّة في الشّهر الأوّل إضافة إلى أعمال المطبخ والنّظافة ثمّ التّدريب على أساليب المشي والعرض وحمل السّلاح..!

الخلاصة أنّه ينتظر انتهاء العام المتبقّي على أحرّ من الجمر.

الثّاني حاز على رتبة رقيب فقط لأنّ مستواه الدّراسيّ لا يؤهّله لأكثر من ذلك، وقد حدّثني عن تجربته الجديدة وهو باسم الثّغر، يعدّد زملاء طيّبين من كلّ جهات الوطن ويروي قصصا عن تواضع وتعاون عسكريين من ذوي الرّتب العالية، وكيف يتفانون في خدمة الوطن والحرص على راحة الجنود..!

والخلاصة أنّه مستمتع بوقته ويشعر أنّ ما فيه يؤهّله بعد ذلك لخوض غمار الحياة بشخصيّة أكثر نضجا.

ما حدث مع الضّابط والرّقيب يحدث معنا في ميادين الحياة الأخرى، والسّبب أنّ المتشائمين ينظرون إلى ما حولهم بعين السّخط فقط، بينما يستعمل السّعداء والمتفائلون عينيْ الرّضا والسّخط في الوقت ذاته، بل يبالغون في النّظر بعين الرّضا والتّغاضي عن بعض المساوئ ليتحقّق الاطمئنان وتستمرّ الحياة بسلاسة، ودون ذلك سندخل في دوّامة القلق والاكتئاب والشكّ في كلّ شيء..!

ثمّ نصير عبئا على أنفسنا ومجتمعنا وحتّى على الأرض رغم صبرها الهائل على أحمالها البشريّة والماديّة العظيمة.

# الفهرس


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| مقدّمة | 5 |
| **في المطالبة والإدارة وسيادة القانون** | 7 |
| مأساة حقيقيّة | 9 |
| شموع التّفاؤل | 10 |
| ما ضاع حقّ وراءه مُطَالب | 11 |
| أضعف الإيمان | 12 |
| أنا المواطن البسيط | 13 |
| القانون فوق الجميع | 14 |
| ادفنوها أو أصلحوها | 15 |
| ليس عارية مستردّة | 16 |
| السّلاح الفتّاك | 17 |
| ضع نفسك في مكان الآخر | 18 |
| **في صناعة النّجاح والنّبوغ** | 19 |
| رحلة ممتعة | 21 |
| المرونة والنّبوغ | 22 |
| المسيرة الصّحيحة | 23 |
| المفتاح السّحريّ | 24 |
| حافظوا على عباقرة المستقبل | 25 |
| حتّى لا يخطّطوا للفشل | 26 |
| النّموذج | 27 |
| بُوكَه والدّرْبُوكَه | 28 |

| | |
|---|---|
| ليس قدرا مقدورا | 29 |
| **في الإبداع والعزم والإصرار** | 31 |
| كلمة سرّ النّاجحين | 33 |
| المكتبة "الحمارية" | 34 |
| أين عمّي الهادي | 35 |
| عمّي ناصر | 36 |
| وأنتم أيضا لو أردتم | 37 |
| صيدليات الرّحمة | 38 |
| على منوال إبراهيم | 39 |
| رسائل عظيمة | 40 |
| **في الرّياضة والفنّ** | 41 |
| كرة القدم | 43 |
| المثل الأعلى | 44 |
| بين ماجدة والمهمّشين | 45 |
| أكبر من مجرّد فتوى | 46 |
| القضيّة رقم واحد | 47 |
| هل يعطينا أحدٌ فرصة أخرى | 48 |
| الكرة المخطوفة | 49 |
| **في الأماكن العامّة وحقوق الآخر** | 51 |
| دعونا ننعم بالهدوء | 53 |
| أفراح تسرق أحلام الآخرين | 54 |
| خطر على صحّة المجتمع | 55 |
| مقاهي بلا دخان | 56 |
| صورة تذكارية | 57 |

| | |
|---|---|
| الرّاحة في الإيجابيّة | 58 |
| **في الاقتصاد والعمل** | 59 |
| حافظ على قشّابِيّتك | 61 |
| في المولد | 62 |
| نوفمبر | 63 |
| المشكلة ليست في الصّينيين | 64 |
| نوفمبر والبناء الحضاريّ | 65 |
| **في الأسرة والطّفل** | 67 |
| مجرّد أطفال | 69 |
| بابا قال لي | 70 |
| رسائل الانتحاريين | 71 |
| مشروع جلاّد | 72 |
| معتقل العوانس | 73 |
| **في الطّريق وحياة الآخرين** | 75 |
| الانطلاقة الصّحيحة | 77 |
| منظومة أخلاقيّة | 78 |
| أنانيّة مَرَضيّة | 79 |
| أفتونا يرحمكم الله | 80 |
| اقتل نفسك بعيدا عني | 81 |
| **في الغذاء والدّواء** | 83 |
| شاي بالملح | 85 |
| تنازل غير مبرّر | 86 |
| دعونا نفوّت الفرصة عليهم | 87 |
| مرض السّكر | 88 |

| | |
|---|---|
| **في الشّعور والرّضا والأمل** | 89 |
| أربعون سنة مع العَرْعَار | 91 |
| تفاؤل متطرّف | 92 |
| إلى مزيد من التّفاؤل | 93 |
| بين الضّابط والرّقيب | 94 |
| الفهرس | 95 |

إيمانا منا بـأهمية التوثيق في تثبـيت الحدث في الظرف لكل عمل إنسـاني سـواء كان إبـداعا أو إنتاجا فكريا ، بادرت مديرية الثقافة لولاية الوادي إلى إعطاء الفرصة لمبدعي الولاية لاسيما الشباب منهم و هذا بطبع سلسلة إصدارات سنوية تتناول مختلف المواضيع ذات الصلة بـالطيف الثقـافي كالفنون ، الآداب ، التاريخ ، التراث ، الثقـافات الشعبية و الانتروبولوجيا.

هذا الكتاب " دندنـات "هو أحد الأعمال الإبداعية و الفكرية التي تم قبـولها لسـنة 2010 من طرف لجنة القـراءة المنشـأة خصيصا لهذه العملية التي تم الإعلان عنها في 14 جوان2010 ولمدة أربـعة أشهر كاملة.

نتمنى أن يجد القراء مبتغاهم من هذه الأعمال .

السيد/حسن مرموري
مدير الثقافة لولاية الوادي

مديرية الثقافة لولاية الوادي
شارع الطالب العربي الوادي
الهاتف:032248849
الفاكس:032248799
D.culture39@yahoo.fr

ISBN 9947947942673